كتاب أورينت

-7-

أحمد برقاوي

سوريا في لاءات الحرية





سوريا مجتمع الشرارات. هو مجتمع الهشيم بكل أنواعه، الهشيم الذي تراكم عبر عقود من الزمان والعماء السلطوي ـ الجاهل بالتاريخ ـ كان ينظر إلى تراكم الهشيم على أنه نوع من الاستقرار والاستسلام المطلق من قبل البشر لواقعهم. لم يسمح العماء السلطوي للسلطة الحاكمة أن ترى الاستنقاع الحاصل، لأنها ما كان لها أن تميز بسبب عمائها التاريخي ـ بين الاستنقاع والاستقرار. ففي الوقت الذي كان فيه الجيل الذي هزمته السلطة ينعى آماله خائباً متشائماً فاقداً أمل التغيير، كانت أجيال جديدة تنمو في قلب الهشيم الذي راكمته السلطة.

لقد تكّونَ الهشيم من كرامة مجروحة، وذل مؤلم، وعبودية مشعور بها، وبطن مسروق، ورفض صامت، وثلة من المتمجدين الذي تحدث عنهم الكواكبي في (طبائع الاستبداد)، وعرّفهم بأنهم «من يستعيرون قبساً من نار السلطان ليكووا بها البلاد والعباد»، وطائفية ذات وهم بانتصارها على الأكثرية.

(من الكتاب)



ســــــــوريا في لأواء الحرية

أحمد برقاوي

سوريا في لاءات الحرية



سوريا في لاءات الحرية

- المؤلف: د. أحمد برقاوي
- لوحة الغلاف: الفنان علي فرزات
- الرسوم الداخلية: من أرشيف الفنان حلمي التوني.
- الإشراف الفني: محمد منصور
- التدقيق اللغوي: أحمد عادل المحمد
- الطبعة الأولى: ٢٠٢٢
- السلسلة: **(كتاب أورينت)**
- العدد الأول– آذار/ مارس ٢٠٢٢

المحتويات

الإهداء

إلى صديقي غسان عبود

الذي جعل من أورينت فضاءً للاءات الحرية.

المستنقع والبركان

من أخطر الحالات التي يعيشها مجتمع ما حالة الركود التاريخي. والركود التاريخي بالتعريف القضاء على أي قوى اجتماعية - سياسية محركة للتاريخ، وإذ يتحول المجتمع إلى خلو من هذه القوى مع وجود سلطة مناهضة للتاريخ وسيرورته فإن المجتمع يتحول إلى مستنقع تحرسه ثلة من الخنازير البرية.

واطمئنان السلطة لهذا الاستنقاع يزيد من تغولها واستخفافها بالبشر حتى يسيطر عليها الظن بأن لا قوة قادرة على زعزعتها أبداً. فمنذ منتصف الستينات بدأت عملية تكوّن المستنقعات المتحالفة والمتشابهة في البلدان العربية التي شهدت ازدهاراً في فاعلية الفئات الوسطى وبخاصة الجيش. وفي السبعينات بدا أن المستنقعات أخذت شكلها النهائي وراحت تزداد عمقاً وثراءً في أنماط الوسخ التاريخي.

خلال فترة واحدة تقريباً حصل أن انتقلت السلطة إلى عدد من الطغاة عبر انقلابات عسكرية، النميري في السودان عام ١٩٦٨، القذافي في ليبيا عام ١٩٦٩، حافظ الأسد في سوريا عام ١٩٧٠، السادات في مصر عام ١٩٧١، مبارك عام ١٩٨١، اغتيال الغمشي واستلام علي عبد الله صالح ١٩٧٨، وأخيراً بن علي١٩٨٧ الذي تأخر على ما يبدو كثيراً. لسنا الآن في معرض تحليل الانقلابات العسكرية وأسبابها، وما إذا كانت ثمرة خطة ما قائمة في الغرب وأمريكا كما يرى الكثيرون. المهم في الأمر أن هذه الانقلابات أسست لأشنع

أنماط الحكم في العالم المعاصر. لقد وضع قادة الانقلابات أمام أعينهم هماً واحداً وحيداً: البقاء في السلطة إلى "الأبد".

لقد ظل السادات يحكم مصر بعد انقلابه عبر توريث السلطة بعد الموت إلى نائب عرف كيف يحافظ على السلطة مدة ثلاثين عاماً. واستمر البشير بوصفه وارثاً لهوية سلطة جعفر النميري وسار بن علي على طريق الأسد ومبارك. وتعرف علي عبد الله صالح على طريق الاحتفاظ بالسلطة بشكل ممتاز بعد اغتيال الحمدي والغشمي. وأحكم الأسد بيديه على عنق سوريا ثلاثين عاماً وأورث ابنه هذا الإحكام. وتحول القذافي إلى الحاكم بأمره على ليبيا. وسيطر صدام حسين سيطرة كاملة على مقاليد السلطة.

كان الاختلاف النسبي بين هؤلاء مرده إلى اختلاف الحقل الثقافي - الاجتماعي الذي ظهر فيه كل طاغية منهم، وهذا أدى إلى اختلاف المستنقعات واختلاف البراكين.

نشأ المستنقع المصري وتطور في حقل مجتمع ذي علاقة عميقة بالدولة. وفي حقل دولة تستخدم الحد الأدنى من العنف. والتفاوت الطبقي عميق، والمجتمع المدني قوي، والنخبة ذات أثر بالحياة والجيش مؤسسة قوية التأثير دون تدخل في حياة الناس، والأصولية الإسلامية قوّت من شوكة أجهزة الأمن. لم يكن المستنقع المصري عميقاً بما فيه الكفاية لتدمير مصر تدميراً كلياً.

في واقع كهذا لم تكن فكرة التوريث قابلة للحياة لأن المستنقع لم يكن عميقاً بما فيه الكفاية - كما قلنا لتحقيق ذلك. ولهذا كان الانفجار داخل المستنقع سهلاً وقليل التكلفة. كان الإخوان المسلمون دخان البركان والشباب حممه وغاب نظام مبارك عن مصر لتبدأ مرحلة الصراع على السلطة بين قوى دينية مغتربة عن التاريخ الواقعي - يمثلها الإخوان المسلمون - وبين قوى مدنية وعسكرية.

وسيبقى هذا الصراع قائماً لسنوات قبل أن ينتصر التاريخ الديمقراطي على تقاليد دولة عميقة بيروقراطية مركزية. يقترب المستنقع التونسي من المستنقع المصري حيث المجتمع التونسي قد حصل بأنيابه على نقابات وأحزاب، وحيث التجربة الدستورية تركت أثراً مهماً على الوعي حتى على وعي الحركة الدينية الغنوشية. وفساد العائلة والأصهار لا يختلف كثيراً عن فساد العائلة المباركية. ولكن هناك جانب مهم ألا وهو أن بن علي لم يكن لديه من يورثه من الأبناء ولا من يتسلم أحد مراكز القوى كعلاء مبارك. إنه نظام بطالة وفقر واستبداد. لم يكن الجيش في قبضة بن علي بالمعنى الدقيق للكلمة ولهذا عندما أيقن أن لا سبيل إلى مواجهة الثورة الشعبية حمل نفسه بكل خوف وأدب على الرحيل إلى مكان يعرف أنه لن يخذله سياسياً وقيمياً. فهو قد أخذ صورة «الدخيل» الذي يطلب الحماية. لكن الفرق بين المستنقع المصري والمستنقع التونسي قائم في أن القيح الأصولي - السلفي المصري أوسع وأكبر وأعمق.

تميز المستنقع الليبي بضعف شديد للمجتمع وللدولة معاً في مجتمع بالأصل ريفي - فلاحي عشائري. وصل الحاكم الفرد في طرابلس حد جنون العظمة مع بارنويا لا يدركها إلا من تعرف عليه رؤية العين ودقق في كلماته. فملك ملوك أفريقيا وصاحب كتاب كان يظنه منقذاً للبشرية كان خائفاً على ملكه ويرى الكل أدنى منه. كان مؤمناً إيماناً مطلقاً بأن الكل أدنى منه، ولهذا كانت نخبته الحاكمة ذات سوية متوسطة وعالية، وهي التي حملت عبء الانتقال السياسي. لم يستطع المال الريعي والجامعات الكثيرة أن تدمر البنية المناطقية - العشائرية بقرار. ذلك أن حرمان المجتمع من السياسة والنقابة والحرية لا يسمح لأية بنية قديمة بالزوال عبر قرار إداري. ولهذا تحولت اللجان الشعبية إلى أجهزة قمع سلطوية شديدة البطش. فضلاً عن أن المؤسسة العسكرية بمجملها كانت في قبضة القائد.

كان انفجار البركان داخل هذا المستنقع انفجاراً فجائياً غير متوقع، ولهذا كانت دهشة "القائد" قوية وعماء القوة لم يسمح له أبداً بالتفكير. وصار ما صار. أما في اليمن بالمجتمع القبيلي اليمني المسلح لا يسمح - على ما يبدو - بانتصار ديكتاتور فرد حاكم بأمره كما هو الحال في مجتمع ليبيا القبيلي، المسالم.

ولهذا كان الدكتاتور جزءاً من بنية مجتمع قبيلي دقيق في علاقته المتبادلة. فهذا السنحاني المنتمي إلى حاشد قادر على إدارة لعبة ديمقراطية وخالية من العنف. ولهذا اعتمد على الجيش وليس على رجال الأمن. فحرية الأحزاب وحرية الصحافة والتعبير كانت جنباً إلى جنب مع حرية الفساد من جهة وتوزيع القوة على الأولاد والأقربين جداً من جهة أخرى. ولهذا كان أول إسفين دُقّ بعد البركان انشقاق في الجيش يقوده واحد من آل الأحمر أي حاشد. غير أن سجله الحافل في مواجهة القاعدة وقرب اليمن من السعودية ودخولها على الخط وبقاء البركان سلمياً والتدخل الأمريكي كل ذلك سمح بنوع من تقاسم سلطة بدون علي عبد الله صالح. إنه الوحيد من بين أربعة بقي حراً في وطنه قبل أن يقتله حليفه الحوثي. فالقذافي قُتل ومبارك سُجن وبن علي هرب وعلي عبد الله صالح بقي. ولهذا كان البركان اليمني ضعيفاً قليل النفثات أبقى على قوى النظام القديم عبر اتفاقية واعتراف متبادل.

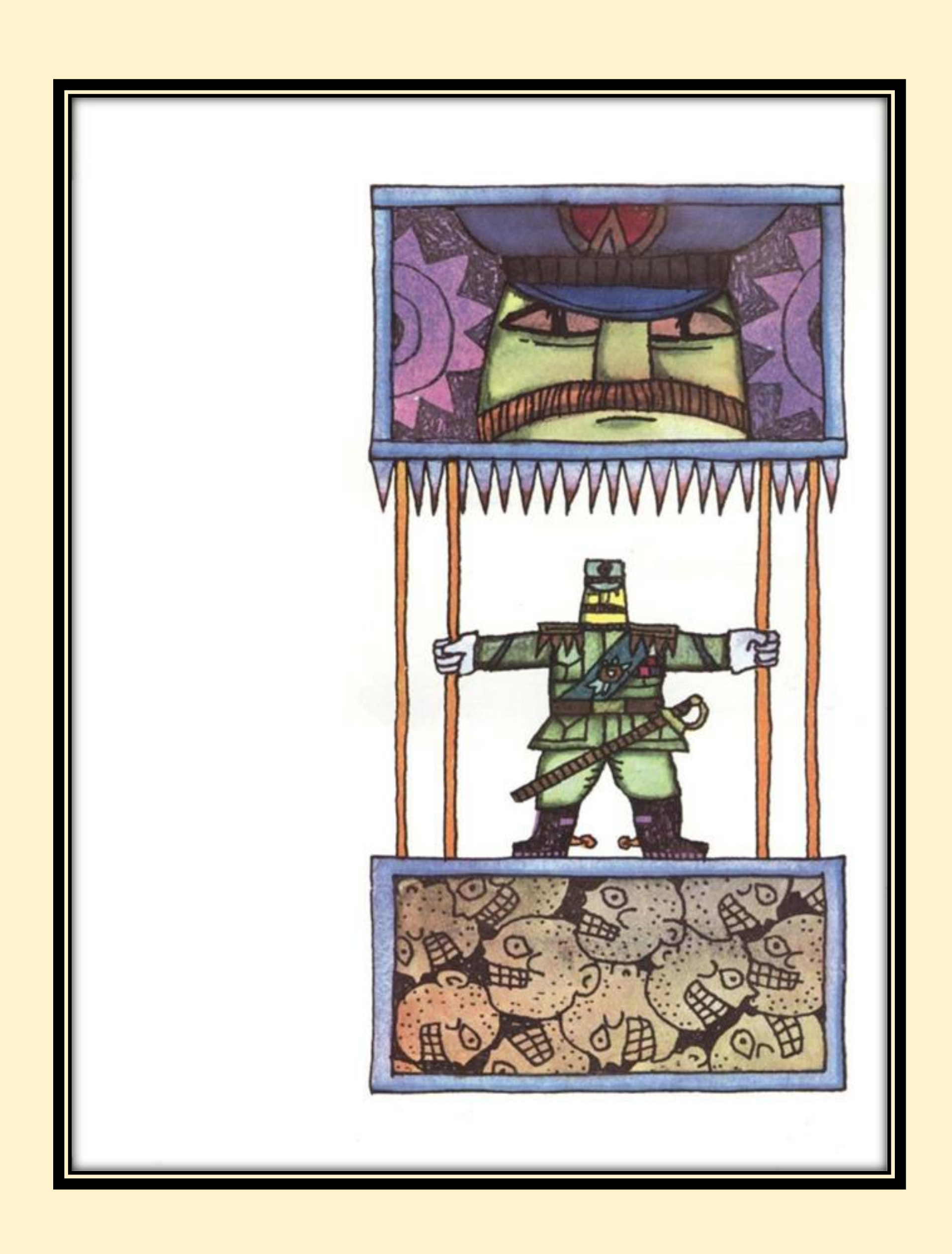
أما المستنقع السوري فهو المستنقع الأوسع والأعمق من بين هذه المستنقعات. ولهذا كان البركان أشد. فالمستنقع السوري رسوبي راكم قوته عبر أربعين عاماً في تأهب دائم لمواجهة أي نوع من أنواع البراكين عبر عصبية طائفية ملطفة بأيديولوجيا فقدت تأثيرها المجتمعي والحزبي هي الأيديولوجيا القومية، ووعي فلاحي قديم بالسلطة. كان حجم القمع لدى المستنقع هذا لا مثيل له في العالم

أجمع، فلقد سجن الإخواني والتحريري والبعثي والناصري والشيوعي (من كل أنواع الشيوعي) والمستقل.

لقد حطم الجامعة والتعليم والقضاء - حطم المؤسسة ولم يُبقِ على أي مكان في مؤسسة الدولة إلا ودمره. لم يسمح بصحافة أو لمجتمع مدني أو بحركة سياسية أو بجمعية خارج سلطته إلا جمعية المسنّين وما شابه ذلك.

في الآونة الأخيرة كان النفاذ من هذا الجدار الكتيم صعباً إلا في حدود، وراح السوري ينوس بين تعايش مُجبر عليه وتلاؤم من أجل أن تتحول الحياة إلى أمرٍ طبيعي من جهة، وبين تنامي الأحقاد واقتناص الفرص للانفجار من جهة ثانية. وكان الانفجار. لكن حجم المستنقع وعمقه ميزه عن الانفجارات الأخرى. والمشكلة الآن هي الآتية:

كيف يمكن للبراكين العربية أن تجفف المستنقع، وكيف يمكنها الحيلولة دون تكوّن مستنقعاً آخر؟



تشابه الجماعات التسلطية واختلافها

تتشابه الجماعات التسلطية في بلدان الربيع في ماهية ممارساتها وتختلف في صور ممارسة التسلط وأشكاله، وفي عصبياتها المتنوعة. ولهذا فإن مصير هذه العصبيات قد ارتبط بطبيعتها التي سنظهرها.

فالجماعة التسلطية المصرية مثلاً تنتمي إلى الأكثرية من حيث الانتماء الديني. وكذا الجماعة التسلطية التونسية. إذا ليس هناك عصبية دينية تجمع الجماعة الحاكمة. تكوّنت الجماعة التسلطية في مصر حول شخصية الرئيس الذي ينتمي بالأصل إلى المؤسسة العسكرية، وأحاط نفسه بجهاز أمني وعسكري وحزبي وأيديولوجي. حيث أعلنت قيادات المؤسسة العسكرية ولاءها للسلطة محافظة على امتيازاتها. فالعصبية هنا قد تكونت بوصفها عصبية عسكرية وأمنية.

وأحاطت المؤسسة الأمنية الرئيس بالحماية، وقدم الحزب الوطني الوجه المدني للجماعة التسلطية بسيطرته على السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية عبر تزييف الانتخابات التشريعية وتحطيم نزاهة السلطة التنفيذية وكذا الحال في تونس، ولقد منح الحاكم المطلق للدائرة المحيطة به فضلات سلطة تسمح لها بالإثراء وممارسة الفساد، وعلى امتداد ثلاثة عقود تكونت لدى الحاكم المطلق وأسرته الضيقة و الدائرة المحيطة وبعض جماعات الولاء له ذهنية امتلاك الدولة بوصفها امتداداً لذهنية امتلاك السلطة.

صحيح أن هذه الجماعة التسلطية محدودة وأقلية ولكنها جماعة مفتوحة وليست مغلقة حيث يمكنها استيعاب أفراد جدد. ولهذا فالعصبية هنا هي عصبية أجهزة السلطة الفاعلة في بقاء السلطة، وليست عصبية الحزب الوطني الغطاء غير الفاعل إلّا في حدود ضيقة. بل إن الفاعلين في الحزب الوطني هم الفاعلون أنفسهم في بقاء السلطة، فيما الجمهور المنتسب له هامشي ولا يشكل عصبية.

والتسلطية السودانية هي الأقرب للتسلطية المصرية. لكنها توسلت الدين غطاءً أيديولوجياً لحكمها.

فيما التسلطية الليبية كانت تسلطية أكثر مركزية، وذات إهاب أيديولوجي قومي، وباعتقاد المستبد بأنه المخلص على مستوى الأمة، بل والعالم، وقد دفعه جنون العظمة لخلق شرط تحوله إلى ملك ملوك أفريقيا. صحيح أن عصبيته القبلية كانت قوية، لكن أجهزته القمعية كانت موزعة على عدة أفراد لا تربطهم رابطة الدم.

فيما نشأت الجماعة التسلطية في اليمن بعد عملية امتلاك السلطة بعد الاغتيال السياسي. ثم تحول المتسلط إلى مركز تحيط به القبيلة أو فخذ من أفخاذ القبيلة وبالتالي وزع المتسلط اليمني فضلات السلطة على أقاربه، ومنحهم المراكز وأدوات القمع: الأمن، الجيش، الحرس الجمهوري.

غير أن ذهنية ابن القبيلة والتوزع القبيلي وتنوعه وأخلاق المجتمع القبلي لا تسمح له بممارسة العنف بالدرجة نفسها التي مارستها فيها الجماعة التسلطية في بلدان أخرى.

عصبية النظام اليمني هنا عصبية قبلية - عائلية على خلاف العصبية التونسية والمصرية حيث العصبية متكونة من المتحلقين حول الرئيس وأسرته. ولهذا كان أسهل على الشعب المصري التخلص من الذين تحلقوا حول الرئيس ومجموعة من الموالين المرتزقة. فيما النموذج اليمني للعصبية كان أقوى لأنه قام على رابطة الدم.

أما النموذج السوري للعصبية التسلطية والذهنية الحاكمة فمختلف عن العصبية التسلطية اليمنية والمصرية والتونسية والسودانية والليبية، حيث تكونت الجماعة التسلطية بالتدريج منذ ١٩٦٣ لتصل في عام ١٩٧٠ عصبية قوامها الطائفية التي بدورها تطورت في فترة طويلة من الزمن لتخلق ذهنية الطائفة التسلطية.

إن عصبية النظام السوري التعصبية التسلطية أعقد من العصبيات التسلطية الأخرى. صحيح أن الحاكم هناك وهنا قد أحاط نفسه بالأولاد والأقارب والأنسباء لكن وراء المستبد السوري تكونت أدوات القمع الطائفية وأفراد من الطوائف الأخرى لا يمثلون طوائفهم.

وهنا كمنت الخطورة فالعصبية الطائفية أقوى وأمتن، هذا من جهة، أما من جهة أخرى فإنها لمّا كانت عصبية طائفية تشكل أقلية فإن درجة الخوف لديها أكبر. ولأن درجة الخوف لديها أكثر ازدادت إيغالاً أكثر بطبع مؤسستي الأمن و الجيش بطابع طائفي أولاً، وممارسة إخافة الناس إلى الحد اللامعقول ثانياً.

فضلاً عن الإطاحة بالقوانين والأعراف والتقاليد إطاحة غير معهود بها في الوطن العربي.

وهذا الذي يفسر اختلاف مسارات الثورات في كلٍّ من مصر وتونس واليمن عن مسار الثورة السورية، فلقد انتصرت الثورتان التونسية والمصرية بزمن قياسي قصير لأن العصبية التسلطية والذهنية التسلطية أيضاً لم تتخذا طابعاً قبلياً أو طائفياً. فكانت أضعف بما لا يقاس من العصبية التسلطية في اليمن حيث العصبية القبلية والمؤسسة العسكرية المستولى عليها من قبل الأسرة الأضيق. وتخلص الليبيون من تسلطيتهم بعامل خارجي، فيما العصبية التسلطية في سورية قد أخذت طابعاً طائفياً وتكونت ذهنية الطائفة بوصفها الجماعة التسلطية وصارت الذهنية التسلطية الطائفية ترى المجتمع عدواً طائفياً لها، فالجماعة التسلطية لا تملك فضلات قوة

من الحاكم الأول المطلق كما في تونس ومصر بل تملك القوة نفسها، والفضلات تعطى لمجموعة سيّارة حول عصبية النظام غير موثوق بها أصلاً.

واللافت للنظر أن سوريا وليبيا من بين جمهوريات الربيع التي استدعت قوات أجنبية، الأولى للحفاظ على السلطة والثانية للقضاء على السلطة. ولا شك أن النفط الليبي هو الذي دفع الغرب للإطاحة بالقذافي، والبعد الطائفي الإيراني وسحر المتوسط بالنسبة لروسيا هو الذي كان وراء بقاء الأسدية.

وبالمناسبة فإن الأحزاب التي من شأنها أن تشكل عصبيات أيديولوجية وتنظيمية للسلطات في مصر وتونس واليمن وسوريا وليبيا والسودان لم تشكل قوى فاعلة في الدفاع عن الجماعة التسلطية، لأن الأكثرية المنتسبة إليها لم تكن ذات ولاء للحاكم المتسلط، بل كانت واجهة سياسية لتجميل صورة الجماعة التسلطية وطاغيتها.

لا شك أن الجماعات التسلطية قد جعلت البلاد مجموعة من الجثث هيهات أن تستعيد أرواحها في وقت قصير.

استعادة سوريا الحقيقية

ما هي سوريا؟

هو سؤال عن الماهية التي تدل على حقيقة سوريا. سوريا تاريخياً هي الشام، وللشام خصوصية لا مثيل لها في تاريخ البلدان. الشام هي البحر السوري من غزة إلى إنطاكية، هي من ديار بكر حتى بانياس الجولان، هي الممالك الحضارية التجارية الحرفية التي لم تمتهن يوماً الغزو، تدمر، دمشق، إيبلا، البتراء، حمص، حلب، القدس، أريحا، صيدا صور طرابلس، حماة، اللاذقية، نابلس. سوريا دولة الأمويين العظام، وأول عاصمة للعرب أجمعين كانت دمشق.

الشام صدق فيها قول درويش: كل الشعوب تزوجت أمي. فانصهرت هذه الشعوب وكونت الشامي.

وكل الناس يعرفون كيف قُسمت بلاد الشام، وكيف منح الإنكليز الجزء الأكبر من فلسطين للحركة الصهيونية التي هي مظهر من مظاهر الاستعمار الاستيطاني الإجلائي العنصري. وكيف سُلب منها لواء إسكندرون ومدن أخرى تصل مساحتها إلى ستين ألف كم٢. ما تبقى من الشام بعد الحرب العالمية الأولى وبعد هذا التقسيم ولد سوريا الراهنة.

سوريا مدن كبيرة ومدن حرفة وصناعة وتجارة، وقرى زراعية منتجة، سوريا وطن متعدد الأديان والطوائف والإثنيات والتعايش. سوريا بلد الفئات الوسطى الواسعة سوريا بلد ثقافة الإبداع الأدبي والفكري والموسيقى وأغاني الفرح، سوريا المطبخ الذي يحتوي على ثراء ليس مثله ثراء. سوريا بالأصل بلد الشعور بالحرية والكرامة الإنسانية، حين قسم الفرنسيون سوريا الراهنة إلى دويلات عاد

السوريون ولملموا ما تبقى منها وصنعوا سوريا الراهنة. سوريا تصنع الأيديولوجيات الطوباوية وتصدرها.

وبعد الكارثة التي حلت بسوريا بعد انقلاب الأسد العسكري عام ١٩٧٠، راحت الجماعة الحاكمة تُفقد سوريا ماهيتها: الفرح والكرامة والحرية والتنوع والتعايش. وجرت عملية التدمير الشامل للواقع المادي والروحي لسوريا وتكوين سوريا الزائفة. تحولت سورية إلى ملكية جماعة حاكمة تمثل ذروة الهمجية.

سوريا قامت بثورة لاستعادة ماهيتها ومن أجل حريتها وكرامة أبنائها وليس من أجل دينها. الجماعة الحاكمة لم تكن علمانية ونظامها لم يكن علمانياً وممارستها المستبدة قروسطية، وحسها الوطني معدوم، لا مواطنة دون دولة عقد وطني وعقد اجتماعي. العلمانية المستبدة على شاكلة علمانية الدولة الشمولية الشيوعية والنازية والفاشية هذه ليست علمانية لأنها حولت الأيديولوجيا العلمانية إلى دين الدولة المستبدة.

سوريا بعد تجربة الاستبداد الطويلة لا يمكنها أبداً أن تتحمل استبداداً من نوع آخر. القوى الأصولية العُنفية صورة مشابهة للجماعة الحاكمة وميليشياتها المحلية والمستوردة.

سوريا لا يصلح لها نظام سياسي إلا النظام الذي يقوم على الاعتراف بالتنوع والحق في التعبير عن هذا التنوع. الدين الشعبي السوري دين لا علاقة له بالسلطة الدينية، السلطة الدينية لا دخل لها بحياته وعلاقاته وتجارته وعاداته وأفراحه وأزيائه وحبه للحياة. الدين الشعبي السوري دين حب الله وليس الموت من أجله.

ولهذا فالتفكير بمستقبل سوريا يعني التفكير باستعادة ماهية سوريا التي دمرها الاستبداد الغريب عن روح السوري.

لم يعرف التاريخ أبداً، ولا التاريخ السوري، أن جماعة حاكمة قد دمرت وطناً كاملاً وقتلت مليوناً من السوريين وشردت ملايين واستدعت المحتل حفاظاً على سلطتها التي أصبحت شكلية.

سوريا المستقبل التي تستعيد ماهيتها واحة للحياة وليس ساحة مقاصل لأعناق السوريين الذين صرخوا بـ"اللا" الواضحة للدكتاتور وطغامه.

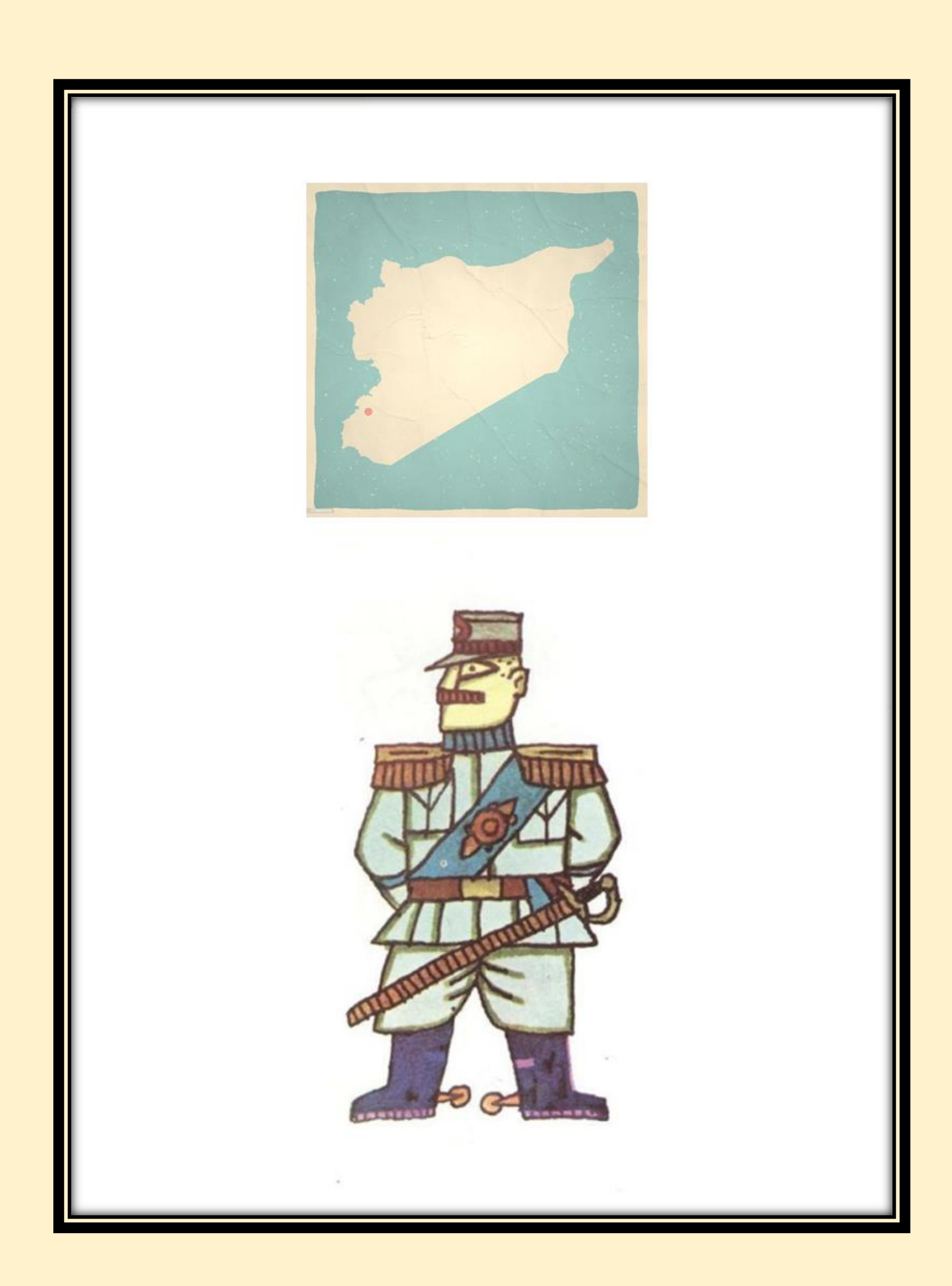
من يظن أن الجماعة الحاكمة ستستعيد سلطتها المطلقة فهو واهم. ما من دولة صار لها نفوذ عبر الاحتلال تفكر بسوريا وشعب سوريا.

الاحتلال الروسي لم يكن كرمى للون عيون بشار الأسد، وكذلك الاحتلال الإيراني والتركي والأمريكي.

سوريا المحتلة تحتاج إلى حركة تحرر سوريا، وليس إلى حركات تابعة لهذا الاحتلال أو ذاك.

والقرار السوري المستقل لن تنجزه إلا حركة سورية مستقلة تلقى التأييد الشعبي العربي والعالمي، وتغدو نداً وليس أداة لهذا أو ذاك.

الوعي بهذا كله شرط ضروري لخلق الإرادة الفاعلة، وإلا فلا.



سوريا مجتمع الشرارات

كان ماوتسي تونغ قد قال يوماً «رب شرارة واحدة أشعلت النار في السهل كله».

لكن متى بمقدور شرارة أن تشعل النار في السهل كله؟

مجتمع الشرارات هو السهل كله، هو في الحالة السورية المجتمع السوري بأغلب أطيافه الطبقية والدينية والمهنية والأيديولوجية. سوريا مجتمع الشرارات. هو مجتمع الهشيم بكل أنواعه، الهشيم الذي تراكم ـ عبر عقود من الزمان والعماء السلطوي ـ الجاهل بالتاريخ ـ كان ينظر إلى تراكم الهشيم على أنه نوع من الاستقرار والاستسلام المطلق من قبل البشر لواقعهم. لم يسمح العماء السلطوي للسلطة الحاكمة أن ترى الاستنقاع الحاصل، لأنها ما كان لها أن تميز بسبب عمائها التاريخي ـ بين الاستنقاع والاستقرار. ففي الوقت الذي كان فيه الجيل الذي هزمته السلطة ينعى آماله خائباً متشائماً فاقداً أمل التغيير، كانت أجيال جديدة تنمو في قلب الهشيم الذي راكمته السلطة.

لقد تكّونَ الهشيم من كرامة مجروحة، وذل مؤلم، وعبودية مشعور بها، وبطن مسروق ورفض صامت. وثلة من المتمجدين الذي تحدث عنهم الكواكبي في طبائع الاستبداد وعرفهم بأنهم «من يستعيرون قبساً من نار السلطان ليكووا بها البلاد والعباد»، وطائفية ذات وهم بانتصارها على الأكثرية.

في الوقت الذي راح فيه الهشيم يتراكم ليحول المجتمع إلى مجتمع الشرارة كانت السلطة تمادى أكثر فأكثر في مدّ المجتمع بأنماط جديدة من الهشيم. فالشباب

الذي صار يسوح في العالم بكبسة على أزرار آلة على قد كف اليد عاطل عن العمل، شاعر بالهوة التي تفصله عن سلطته القديمة بوعيها وأساليبها ولغتها، محتقر لها ساخراً من مؤتمراتها وقراراتها الخلبية إلى حد القرف الوجودي وهذا الشباب نما لديه الخيال المتمرد، خيال الخلاص.

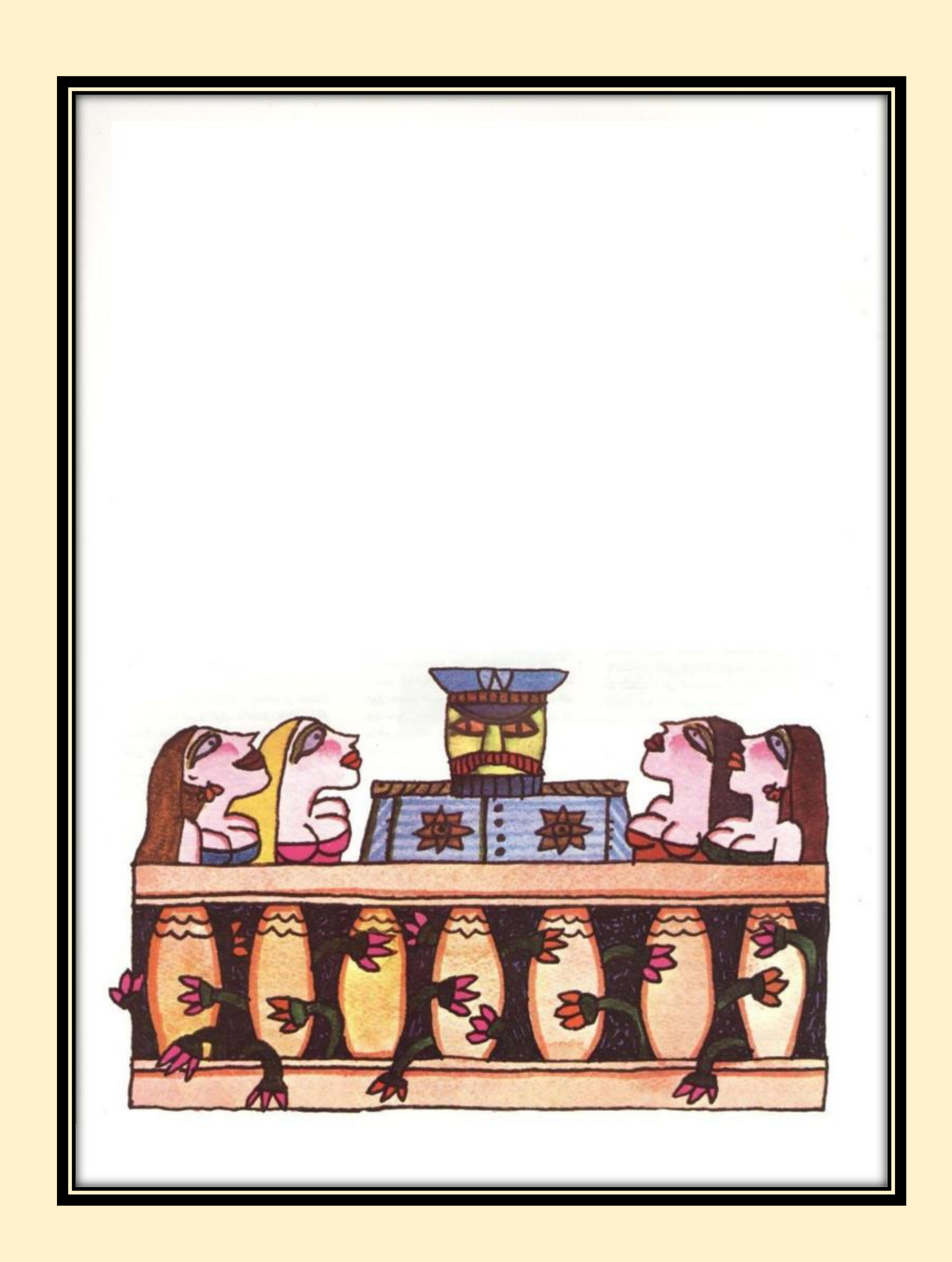
ففي الوقت الذي كانت فيه السلطة الحاكمة بلا أحلام بل وبلا خطاب وعد واعتقدت أن المجتمع قد فقد أحلامه هو الآخر بفعل همجيتها وشرهها وهبشها وصمت الشعب الطويل وسكينته، كان الشعب يخفي أحلامه وآماله واحتقاره لسلطة لا تنتمي إلى تاريخ الوطنية السورية التي أسسها الاستقلال، ولا إلى منطق العصر. لم تكن السلطة تدري أن الشعب يراكم رفضه، لم تكن تدري أن صمته غليان في العمق مناقض لما هو على السطح، لم تكن تدري أن الشباب وصلوا حد الانفجار فكانت الشرارات.

لم يكن الاعتقال والتعذيب والقتل والنيل من الكرامة والموافقات الأمنية وصور الطاغية وتماثيله أنماط سلوك لم تحسب السلطة أي حساب لما تولده من حقد خائف، ظناً منها أنها وقد مارست كل هذا دون أي رد فعل يذكر، فإنها قد انتصرت على المجتمع. ولأنها لا تعرف أي حال من أحوال منطق التاريخ ولم تسمع بالمثل العربي الأشهر «وصل السيل الزبى» ولأنها لم تواجه إلا خصماً أصولياً مسلحاً ضيق الأفق لم يدخل في حسبانها مفهوم مجتمع الشرارات.

لقد كان الانفجار مدمراً، لم يُواجه الانفجار من قبل السلطة بحكمة العقل الذي يقرأ التاريخ، بل بمنطق من يريد أن يكسر رأس التاريخ، وحين عجزت

السلطة بقواها الخاصة أن تكسر رأس التاريخ، استدعت قوى مدمرة روسية وإيرانية وميليشيات شيعية، فكان التدمير الكلي الذي انتظم البلاد.

ثم وجدت السلطة نفسها جزءاً من الهشيم نفسه، الذي يحتاج اليوم إلى شرارة، ولكنها هذه المرة شرارة المجتمع كله، فأوهام بعض الذين راهنوا على الانتصار على الشعب، وجدوا أنفسهم في مصير واحد وحالة واحدة مع الشعب. وهكذا فإن المجتمع الهشيم لم يعد ينظر بعين المنهزم والمنتصر، بل بعين الخلاص من تلك البنية التي صنعت الهشيم كله.



الصراع على سوريا والصراع من أجلها

منذ أن تحقق اتفاق سايكس- بيكو في بلاد الشام، ومنذ فصل العراق عن الشام لم ينقطع شكلا الصراع في الشام وبلاد الرافدين "الصراع على بلاد الشام والعراق " و"الصراع من أجلها".

قام الصراع على المنطقة بين قوى عالمية على احتكار النفوذ من جهة وصراع قوى داخلية من أجل ما يجب أن تكون عليه المنطقة، من جهة ثانية. في الصراع على المنطقة ضاعت فلسطين والأحواز وماردين وإسكندرون وتأكد التقسيم الذي أنجزه الاستعماران الفرنسي والبريطاني وفي "الصراع من أجل" ثار الشعب من أجل الاستقلال والحرية وما زال هذا الصراع قائماً.

لكن "الصراع على البلاد" كان وما زال يحتاج إلى أطراف داخلية تكون جزءاً من "قوى الصراع الخارجي تلبس قناع الصراع من أجل البلاد". ودول النفوذ كلما رأت حالة "صراع من أجل" تدخلت كي تمنع الإرادة الداخلية من الاستقلال. هذا الأمر يؤكده ما حصل ويحصل في فلسطين ولبنان وسوريا والعراق.

إذا طبقنا هذا المنهج في التحليل على ما يجري في سوريا نجد ما هو آت:

الأصل أن هناك ثورة انفجرت في سوريا ضد نظام سياسي لم يعد الشعب قادراً على تحمّله إطلاقاً. أي نشأ صراع من أجل سوريا في صورة ثورة شعبية.

بالمقابل ما إن انفجرت الثورة من أجل سوريا حتى تداعت قوى الصراع على سوريا. الغرب وأمريكا وتركيا من جهة، وروسيا الصين إيران من جهة ثانية. في الوقت الذي كان فيه أحد طرفي الصراع: روسيا الصين إيران يقدم مطلق الدعم للنظام بوصفه النظام الأمثل الذي يؤمّن النفوذ لهذا الطرف أو ذاك كان الغرب وأمريكا طرفاً خائفاً من نتائج الثورة بوصفها "ثورة من أجل". ولهذا سعى جاهداً ليحول الصراع فقط إلى صراع على سوريا. وكان النظام ذا مصلحة في ذلك لأنه يعمل بذهنية الصراع على سوريا وليس من أجل سوريا. وهذا الذي يفسر تدمير المدن والقرى والقتل ورفض التنازل عن السلطة أو جزء ولو ضئيلاً من السلطة من أجل تحقيق حياة طبيعية في سوريا.

وأخطر ما في الأمر أن ظهرت قوى مقاتلة من الخارج والداخل تخوض صراعها على سوريا وليس من أجل سوريا، وهذا شأن الميليشيات الشيعية والإسلامية. وهكذا ففي الوقت الذي كانت فيه القوى الديمقراطية تبحث فيه عن دعم لها من أجل سوريا، كانت القوى الميليشياوية تعمل من أجل المطالبة بالدعم لها بمنطق الصراع على سوريا، لأن الثورة من أجل سوريا هي خطر على كل الأطراف التي تفكر وتسلك وفق منطق الصراع على سوريا.

سوريا: دولة السلطة

أرسل لي صديق فيديو نشره مواطن سوري يعيش في سوريا، فكرة الفيديو ساخرة جداً ومحزنة. يقول الشخص بألم ساخر:

" أنا أعيش في الدولة المنتصرة، رجاءً أريد لأحد أن يأخذني للعيش في الدول المهزومة، الدول التي هزمناها، لقد مللت من العيش في دولتنا المنتصرة، أريد أن أختبر تجربة العيش في الدول المنهزمة".

لقد ذكرني هذا الفيديو المؤلم بمقال كتبته قبل سنوات أربع، في الرد على سفهاء القول. وإليكموه كما هو.

يتشاطر سفهاء الجماعة الحاكمة في سورية، المدافعون عن أحط أشكال الاستبداد في هذا العصر، بقولهم إن ما جرى في سورية هو تمرد على الدولة، ناسين أنه لو كانت سورية دولة، لما كان لهم مكان في ساحة القول، ولا مكانة لأي جماعة من جماعات الاستماع إلى هذا القول ومؤيديه.

يقول الواقع: انفجرت الثورة في سورية ضد سلطة غاشمة، وليس تمرداً على دولة، فالتمرد جرى على سلطة دمرت الدولة. أجل علينا أن نكرر: قامت الثورة ضد سلطة دمّرت الدولة وألغت منطق الدولة، حتى صارت المؤسسات التي من شأنها رعاية حق المواطن وحمايته من الاعتداء مؤسساتِ سلطة غاشمة تعتدي على المواطن والدولة، لا مؤسسات دولة.

لو كانت هناك دولة، بالمعنى المعاصر للكلمة، مؤسسة على مبادئ الحق والواجب والحرية والمواطنة؛ لما كانت هناك ثورة.

هدف الثورة كان ولم يزل قيام الدولة بمفهومها المعاصر، حيث المواطنة والحق والحرية، وما يترتب على هذه المفاهيم من قيام مؤسسات فاعلة في تحقيقها. كل العنف الذي استخدمته الجماعة الحاكمة والدمار الذي أحدثته كان للحيلولة دون قيام الدولة، والبقاء في حال السلطة بلا دولة.

جميع الحركات الأصولية العنفية وغير العنفية ذات منطق متطابق مع منطق سلطة بلا دولة، ولهذا كان صراعها صراع سلطة ضد سلطة مشابهاً لها. وعقليتها عقلية الجماعة الحاكمة نفسها، ومنطق الحرب والغلبة والغنيمة واحد، لدى الطرفين.

ولأن الأمر على هذا النحو، فإن الكفاح الشعبي السوري، بكل مكوناته التاريخية، ذو مصلحة، من حيث المبدأ، بقيام الدولة السورية، وما يترتب عليها من انتصار الذات الحرة، حتى أولئك الذين جرّهم النظام إلى معركته للحفاظ على السلطة سيجدون أنفسهم بحاجة إلى الدولة ومنطق الدولة، وآية ذلك أن السلطة لا تستطيع، عبر منطق الغنيمة، أن تلبي كل حاجات مؤيديها، فمنطق الغنيمة سيخلق عاجلًا أم آجلًا التفاوت الطبقي، وما سيتولد عنه من تناقضات وصراعات.

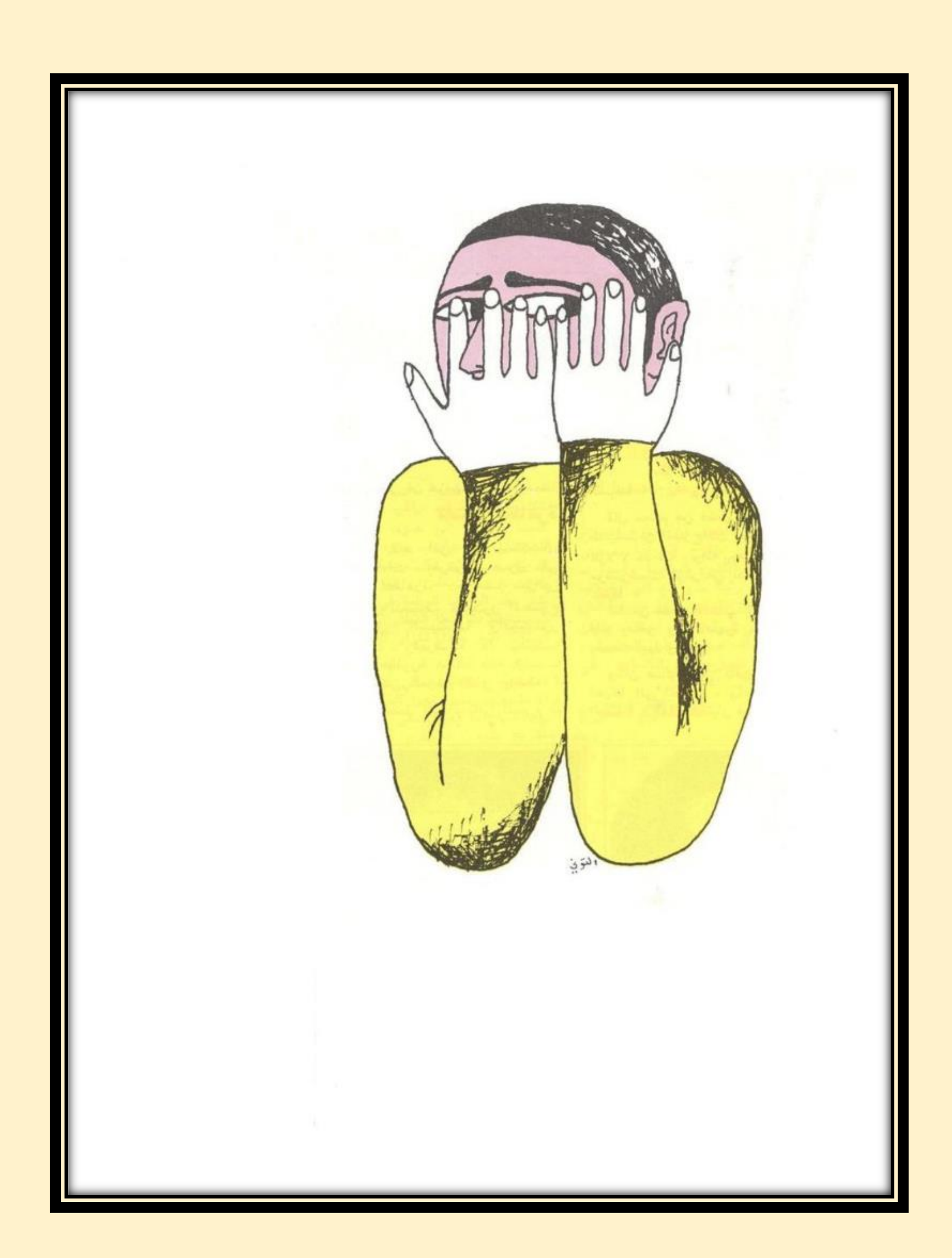
إن من لديه عقل الدولة المعاصرة وحده اليومَ القادر على التفكير في أحوال سكان الدولة بوصفهم مواطنين أحراراً، وخارج عقل الدولة لا يكون إلا عقل الجماعات العنفية، وما يترتب عليه من موت الأمن، وعقل الجماعات الطائفية

بوصفه عقلًا زائفاً، وما يتولد عنه من نفي الآخر وتدمير الحقوق، وعقل سلطة ما قبل الدولة وما يتولد عنه من خراب القيم، وعقل المافيات المحتكرة للثروة وما يتولد عنه من فقر.

ففي الدولة جيش، ولكن ليس جيشاً يقهر السكان، وفي الدولة شرطة وأمن، ولكن ليس من أجل تصفية المواطنين وقتلهم ومراقبة أفواههم، في الدولة جامعات، ولكن ليس من أجل احتلالها عبر الأميين والجهلة. وقس على ذلك.

لعمري، إن اعتقاد السلطة بأنها قادرة على تكسير رأس التاريخ الطبيعي والسيرورة المجتمعية، وهمٌ ما بعده وهم. والسلطة المتأخرة ذات الغباء العبقري لا تتعظ بالتجربة، وليس في استطاعتها الاتعاظ بالتجربة، لأنها إن فعلت واتعظت انهارت أعمدة بقائها الزائف، وفي كل الأحوال، فإن اعترفت أو لم تعترف، فمآلها إلى زوال.

لكنها إن اعترفت وودعت التاريخ بسلام فإنها توفر دماء الناس، وإن لم تعترف فإنها تودع التاريخ بدماء وحرب وتدمير الأوطان كما يحصل الآن.



سوريا وسلطة الوهم المسلح

هل يمشي الوهم على قدمين؟

أجل فليس هناك وهم مجرد. الوهم دائماً متعين بحامليه والمؤمنين به. الوهم بشر من وهم.

نمط من الوجود قادر على أن يجعل الموجود فاعلاً حتى حدود اللامعقول.

والوهم بوصفه وجوداً لا معقولاً لا يقود إلا إلى سلوك اللامعقول.

خطورة الوهم المتعين بالموجود الفرد - تظل قابعة في عالم الفرد ولا تتعدى حدود الفعل- الموجود المبتذل. أما إذا تحول الوهم إلى عقليه جماعية تسعى عبر العنف لجعل الوهم نمط وجود، وسلطة كلية تخضع الحياة لها فهذا هو موت الحياة المؤكد.

وما دخول الوهم عالم السياسة مسلحاً بالعنف المقدس إلا كارثة وجودية لا مثيل لها في التاريخ، وبخاصة إذا كان مقصود هذا الوهم بقاء بنية لم تعد تتوافر فيها أسباب البقاء، أو استعادة بنية من مقابر التاريخ ولا وجود لها إلا في رأس حامليها.

إن الوهم وقد تحصن في قلعة بشرية تحول إلى مقبرة بشرية حيث يحاول العدم الذي امتلأ بكل أسباب الوجود الزائف أن ينتصر على منطق الحياة والأشياء في وجودها الأصيل.

وليس هناك فارق بين الوهم المسلح بالعنف المقدس والوهم المسلح بالعنف الدنيوي في نتائجه الكارثية. بل إن العنف الدنيوي للوهم أشد تدميراً من العنف الديني كما دللت التجربة، ولكن كليهما يقع في حقل الجريمة.

وتشهد سوريا اليوم نمطين من العنف يمارسان التدمير بكل أشكاله والقتل بكل أنواعه.

١- عنف الوهم السلطوي الدنيوي.

٢- وعنف الوهم المقدس.

فحين انتصرت المصادفة التاريخية المزعجة وانتصرت مؤسسة عسكرية ضعيفة الولاء، ذات إرث فلاحي-طائفي ثأري يقدس السلطة وليس في ثقافتها إلا فكرة القوة المطلقة، تولد لديها الوهم بأنها قادرة على تجميد حركة التاريخ عبر القوة المسلحة واستخدامها في أشد أشكالها همجية.

ولقد اعتمل هذا الوهم سنين طويلة في ذهن الحلقة الحاكمة وأشياعها، وإنتاج وهم كهذا خلق حال استرخاء وطمأنينة وفجور في الممارسة السلطوية.

ووهم تجميد التاريخ مرض عضال عند جميع الديكتاتوريين الحقيقيين أو أشباه الديكتاتوريين.

والمشكلة أن البرء من الوهم السلطوي هذا عملية صعبة ولهذا ما إن كسر الواقع، واقع الهبّة الشعبية، هذا الوهم حتى جرد الوهم قواه دفاعاً عن بنيته المترهلة والتي لن تعود إطلاقاً، فكانت مأساة القتل والتدمير والتعذيب.

لكن المشكلة ظهرت عندما راح وهم آخر يصارع وهماً على شاكلته. فإذا كان وهم السلطة المتخلفة والمتأخرة عن روح العصر قائماً في تجميد التاريخ ومنع نهر الحياة من الجريان، فإن وهم إعادة التاريخ واستعادته وبعث التاريخ الميت ليس أقل خطورة ومرضاً من وهم السلطة.

هذا الوهم المسلح بالأيديولوجيا الدينية والقوة العنفية المسلحة والقادر على مقارعة وهم السلطة أضر بحركة البشر المكافحين من أجل الحرية، إذ تحول الصراع إلى صراع بين وهمين.

ولعمري إن صراع الأوهام على الأرض ذو تكلفة عالية جداً جداً. لأنه صراع يقضي على طرفي الوهم معاً، بكل ما يتمخض عنهما من عذابات.

صحيح أن وهم السلطة المتأخرة تاريخياً قد أنتج وهم حركة هي الأخرى متأخرة تاريخياً (داعش وما شابه ذلك) لكن حركة تحرير العالم من الوهم، تحرير سورية من الوهم باستعادة منطق الممكن التاريخي، أي سورية المستقبل الوطن والمواطنة والحرية، ما زال إمكانية قابلة للتحقق.

يبدو ممكن سورية المستقبل في ظل صراع الأوهام حتى هذه اللحظة غائباً، بل ويبدو وهماً هو الآخر. لكن الأمر ليس على هذا النحو أبداً.

ذلك أن فكرة الحياة الكريمة التي أسست للثورة السورية في الساحات وكان سلاحها الوحيد هو التظاهر والحنجرة ما زالت هي الفكرة العميقة لدى أغلبية السوريين.

ولعمري إن الطعنة التي وجهت إلى هذه الفكرة العظيمة بل الطعنات من الخارج ومن الداخل هي التي جعلت الأوهام تظهر على السطح وكأنها جوهر التناقض.

التناقض في سورية ليس بين وهمين: وهم السلطة الديكتاتورية المتأخرة الفاقدة لشروط الاستمرار المحلية والعملية وبين السلطة المتكئة على استعادة المجد الغابر في صورة الرايات السوداء والمتناقضة مع روح العالم وحركة التاريخ.

سلطتان ضد التاريخ متصارعتان الآن لكنهما ليستا متناقضتين. أما التناقض الحقيقي فهو بين شعب يريد تحرره وتقرير مصيره وفق مبادئ الحرية والكرامة والحق وبين مناهضي هذه المبادئ.

أقول لكم لن تنهزم الأكثرية السورية التي هي صانعة الممكن الحقيقي لسورية، ليس نوعاً من الحتمية والتفاؤل الصادر عن الأمنيات. بل تأكيد لانهيار العالم القديم.

مَن من السوريين يريد العودة إلى صاحب البرميل المتفجر وإلى صاحب صلب الناس في الساحات - لا أحد.

سيخلق هذا الممكن قوته الحقيقية والإرادة التي ستعجل بانتصاره، لأنه - أي هذا الممكن - هو الوحيد المتحرر من سلطة الوهم المسلح.

سوريا وشروط العيش الآن

ماذا يعني أن نتحدث عن شروط العيش الآن؟

فمصطلح شروط العيش يشير إلى الشروط التي تجعل حياة الإنسان ممكنة دون خوف على البقاء. إنها الشروط التي تخلق لدى الإنسان حب الحياة كما يجب أن تكون.

أما كلمة الآن، وهي ظرف زمان، فإنها تدل على أن شروط الحياة في الحاضر هي غيرها شروط الحياة في الماضي، فليس بمقدور الإنسان أن يعيش حاضره في شروط ماض ولى وانقضى. وإذا تركنا حنين جيل قديم إلى ماضيه، فإن الأجيال الجديدة ذات مطالب مختلفة، وليس لديها حنين إلى ماضي الجيل القديم.

فالأجيال الجديدة تبحث عن تحقيق الشروط التي أصبحت معايير للحضارة الإنسانية التي ينتمي إليها الإنسان المعاصر.

إن تلبية الحاجات البيولوجية هي شرط دائم منذ نشأة الإنسان على هذه الأرض، وبالتالي فإن غياب هذا الشرط الضروري للحياة من مأكل ومشرب ومسكن وكساء يعني غياب الأساس الذي يقوم عليه البقاء.

ومن المفترض أن الإنسان قد تجاوز البحث عن هذه الشرط في حضارة تنتج ما يفيض عن الحاجة البيولوجية. لكننا مع الأسف نشهد الآن فقراً وبطالة وجوعاً في أصقاع كثيرة من الكرة الأرضية. وإنها لمأساة أن يحتاج الإنسان إلى ما يحفظ جسده ولا يجده.

والحياة الراهنة التي طبعتها الثورة التكنو-ألكترونية بطابعها خلقت حاجات لا يمكن للإنسان العيش بدونها الآن، بل وصار التواصل وتلبية الحاجات بدونها مستحيلة. فالهاتف النقال وجهاز الكومبيوتر، والحفاظ على الصحة باستخدام الوسائل الحديثة، كل ذلك صار شرطاً ضرورياً من شروط الحياة الآن. بل إن هذه الثورة التكنو-ألكترونية عمقت من حاجة الإنسان للحرية وجعلت حياته مستحيلة في شروط العنف والقهر.

وبعد تطور منابع المعرفة تطورت معها أنماط الشعور بالكرامة الفردية التي لا يمكن أن تتحقق الآن بوجود أشكال من الاعتداء عليها. ولهذا فإن الحركات الأصولية التي تنتشر في بلادنا والتي تريد أن تفرض نمط حياة قديماً على مجتمعاتنا هي حركات ضد الكرامة البشرية التي وصل إليها الإنسان الآن. مع كل ما تتطلبه الكرامة من حرية التعبير والنقد والمعتقد والوجود الحر. وهذا يعني أن شروط الحياة الآن متناقضة كل التناقض مع كل سلطة استبدادية، مع كل سلطة أيديولوجية شمولية أو غير شمولية.

وإن أية سلطة مستبدة باسم أية أيديولوجيا لا يمكن أن توفر شروطاً كهذه الشروط للحياة. سواء كانت سلطة أصولية علنية أو أصولية مستترة.

هذه هي الحدود الضرورية للعيش الآن، وكل من يعادي تحقيق هذه الحدود بالعنف المسلحة، وتحت شعارات أيديولوجية زائفة هو ضد الحياة الآن. ويجب ألا ننسى أن معاداة شروط الحياة كما يجب أن تكون الآن تعني معاداة شروط الحياة في المستقبل. لأن المستقبل الجديد يتأسس على مبدأ الاستمرار والقطيعة.

سوريا المستقبل

اتسم الاستعمار منذ نشوئه الإمبريالي في نهاية القرن التاسع عشر باستخدام القوة وإرغام السكان الأصليين على الخضوع والاعتراف به، وفي هذه الأثناء تظهر بعض الجماعات ذات المصالح بالمُسْتَعمِر، ونادراً أن يخضع بلدٌ ما لاستعمارين أو أكثر في آن واحد، هذا ما كان من تقسيم بلاد الشام كي ينفرد كل مستَعمِر بمستعمراته.

في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين ظهرت أغرب ظاهرة استعمارية، ألا وهي استعمار سوريا.

فلأول مرة في تاريخ الاستعمار تستدعي سلطة حاكمة دولتين لاستعمارها: دولة في بداية تحولها الرأسمالي، ومحتفظة بإرثها الشمولي الستاليني في الحكم وهي روسيا، ودولة تنتمي إلى وعي العصور الوسطى تخضع لمبدأ حق الملوك الإلهي في الحكم.

فضلاً عن أن هناك دولتين: أمريكا التي ترسم حدودها الاستعمارية في سوريا ببعض الجنود، وتعتمد على حركة مسلحة لأقلية قومية، وحلفائها من الأكثرية القومية، وتركيا التي فرضت نفسها دولة مستعمرة بفضل قوى إسلامية حليفة لها.

وهكذا حصلنا على استعمار سوريا من قبل أربع دول روسيا إيران تركيا أمريكا. ومن حيث التجربة الاستعمارية، لا يمكن لمستعمر أن ينجح في استعمار بلد منهار اقتصادياً وتقنياً واجتماعياً وغير مستقر، بل لكي ينجح مستَعمِر لا بد أن يُحدث تقدماً ما في البلد المُستَعمَر، فكثير من تحديث البنى التحتية في جميع البلدان المستعمَرة سابقاً تعود إلى حاجة المستعمِر لكي يسهل استعماره.

والدول الأربع المستَعمِرة ليست في وارد ذلك، وبعضها لا يستطيع اقتصاده أن يتحمل تكاليف تقدم مهما كان بسيطاً. كالاقتصاد الروسي والاقتصاد الإيراني. ولهذا فكل الأموال التي تُصرف من قبل إيران وروسيا إنما تُصرف على الأسلحة وحاجات الحرب فقط.

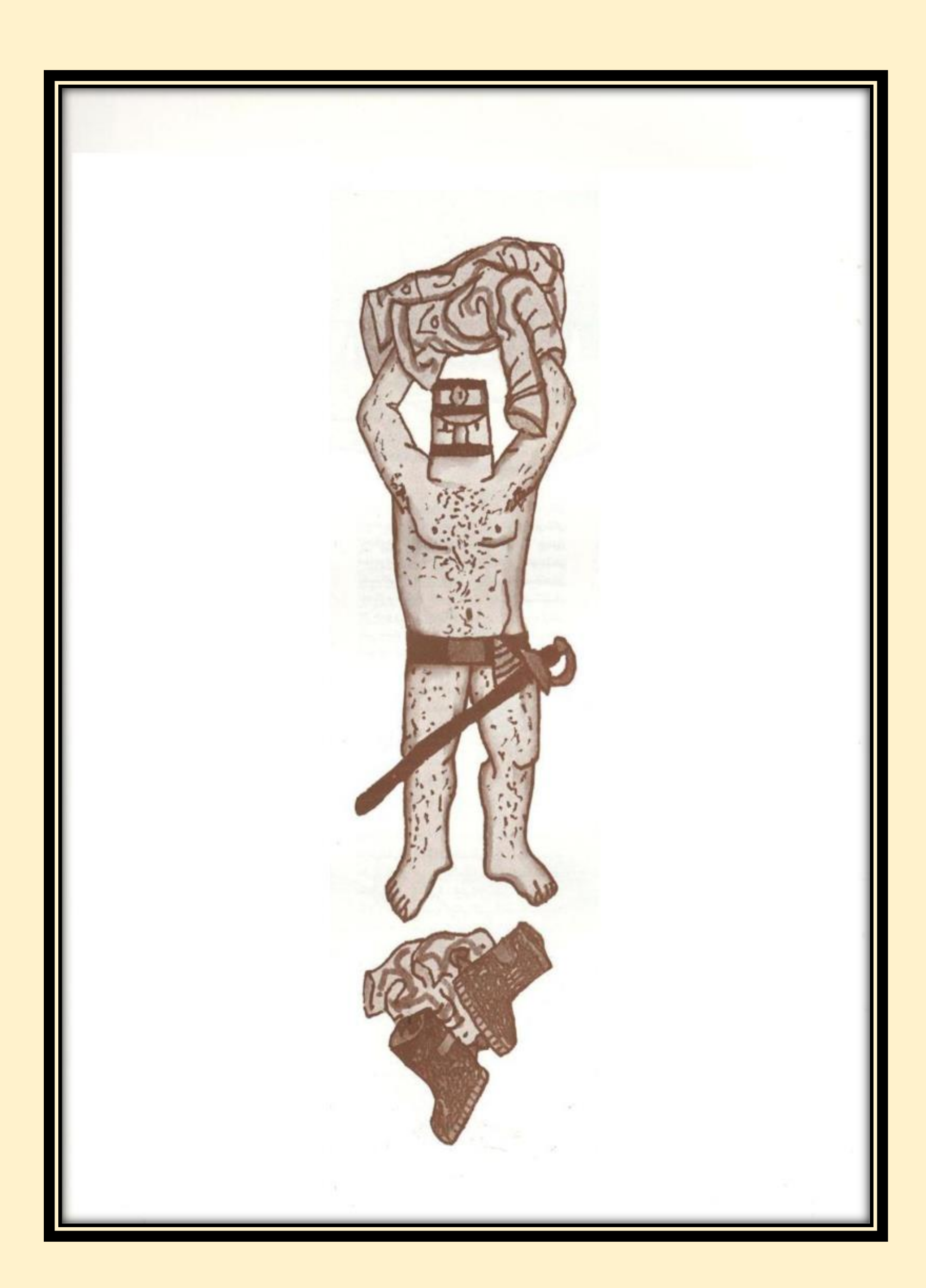
إن المأزق التاريخي المتولد من الحقيقتين السالفتين، إذا ما استمر، يعني ثورات مناطقية وتمردات أهلية وصراعات محلية من شأنها أن تقضي على العصبية الوطنية لقاء عصبيات ما قبل وطنية.

إن أية معارضة وطنية لا تفكر بهذه الحقائق وتعمل على تجاوز أخطارها، ليس باستطاعتها إنجاز أي تحول إيجابي على الأرض.

يجب ألا يخرج التفكير بمستقبل سوريا عن نموذج النظام السياسي المطلوب. وعندي أنه لا يصلح لها إلا النظام العلماني الديمقراطي. الدين الشعبي السوري دين لا علاقة له بالسلطة الدينية، السلطة الدينية لا دخل لها بحياته وعلاقاته وتجارته وعاداته وأفراحه وأزيائه وحبه للحياة. الدين الشعبي السوري دين حب الله وليس الموت من أجله.

سوريا مدن كبيرة ومدن حرفة وصناعة وتجارة، وقرى زراعية منتجة، سوريا وطن متعدد الأديان والطوائف والإثنيات، سوريا بلد الفئات الوسطى الواسعة، سوريا بلد ثقافة الإبداع الأدبي والفكري والموسيقي. سوريا قامت بثورة من أجل حريتها وليس من أجل دينها. بعد تجربة الاستبداد الطويلة لا يمكنها أبداً أن تتحمل استبداداً من نوع آخر. الجماعة الحاكمة لم تكن علمانية ونظامها لم يكن علمانياً وممارستها المستبدة قروسطية، وحسها الوطني معدوم، لا مواطنة دون علمانية ديمقراطية. العلمانية المستبدة على شاكلة علمانية الدولة الشمولية الشيوعية والنازية والفاشية هذه ليست علمانية لأنها حولت الأيديولوجيا العلمانية إلى دين الدولة المستبدة.

فلا الدكتاتورية العسكرية ولا الدكتاتورية الأصولية بقادرتين على إنقاذ سوريا مما هي فيه من أشكال الاستعمار القائمة، أو من المأزق التاريخي الذي هي عليه الآن.



المستقبل السوري بين المنهج العلمي والرجم بالغيب

تقول اللغة العربية: التوقع هو انتظار واقعة محتملة الحدوث، فالتوقع معرفة مؤقتة قد يؤكدها الواقع أو ينفيها. ولا يكون التوقع إلا ثمرة معرفة وعلم. وبالتالي هو يقع في حقل معرفة الاحتمالات.

وبهذا المعنى كل ما يقع في حقل التوقع ينتمي إلى شروط واقعية، هذه الشروط إذا ما توافرت فإنها تنقل الواقعة المتوقعة إلى واقعة حادثة. فإذا كانت السماء ملبدة بالغيوم فإن توقع حدوث المطر مبرر واقعياً لأن الشرط الأساسي لنزول المطر متوافر. وقد لا تتوافر شروط أخرى، عندها يخطئ توقعنا وهذا يعني أن اليقين في التوقع معلق.

فيما التنبؤ: ادعاء النبوة من جهة، والإخبار بشيء قبل حدوثه، والتنبؤ العلمي أصدق أنواع التنبؤ، كالتنبؤ بالكسوف والخسوف مثلاً.

أما الرجم بالغيب: فهو الظن بغير دليل. فيما التنجيم نمط من ادعاء معرفة ما سيحدث بناء على حركة النجوم.

وفي منتصف القرن العشرين تزايد الاهتمام المعرفي-العلمي بالمستقبل، فنشأ ما سمي بعلم المستقبليات Футурология Futurology. وهو علم قائم على وقائع ومعلومات دقيقة متحررة من الأيديولوجيا، ويستخدم في الاقتصاد حركة المجتمعات وأزماتها وحدوث الزلازل وهكذا.

وقديماً قال لنا الشاعر المبدع أبو تمام:

السيفُ أصدق إنباءً من الكتب   في حـده الحد بين الجد واللعب

والعلم في شهب الأرماح لامعة   بين الخميسين لا في السبعة الشهب.

لنخطُ خطوة أخرى في الكشف عن التوقع في عالم المجتمع. المجتمع لا يخضع لقوانين صارمة تسمح لنا بالتنبؤ، والسبب يعود إلى إن الشروط التي تنتج واقعة ما متعددة من جهة، وغير معروفة بمجملها، من جهة أخرى. وهذا يعني أن اليقين لا ينتمي إلى عالم التوقع.

هذا المدخل المنهجي ضروري للإجابة عن السؤال الذي يطرحه بعض اللائمين للثورة السورية بقولهم: لماذا لم يتوقع من فجروا الربيع السوري ما حدث للثورة فيما بعد؟ لماذا لم يتوقعوا المستقبل الذي ينتظر سوريا وها هو الدمار الآن ماثل أمام أعينهم؟

سأفترض أن العقل الذي فكر في مآلات الثورة السورية هو عقل المجلس الوطني وتحولاته في الائتلاف.

حقل التوقعات كان في حدود درجة العنف الذي ستستخدمه السلطة، حجم الدعم الدولي قياساً على الدعم الدولي الذي تم في بلدان الربيع العربي، الدور الإيراني وحزب الله، ثم أضيف إلى هذا الحقل الدور الذي سيقوم به الجيش الحر.

ما كان خارج التوقع: ظهور الحركات الأصولية المسلحة، وقضاؤها على الجيش الحر الذي عزز الأمل بالانتصار في البدايات، التدخل العسكري الروسي، الطعنات الأمريكية والأوروبية، الدور التركي، الدور العربي المتقلقل.

هل كان عدم التوقع هذا خطأ في الوعي المعرفي؟

لا، بل الخطأ الفادح هو في التعامل مع ما لم يكن متوقعاً ووقع.

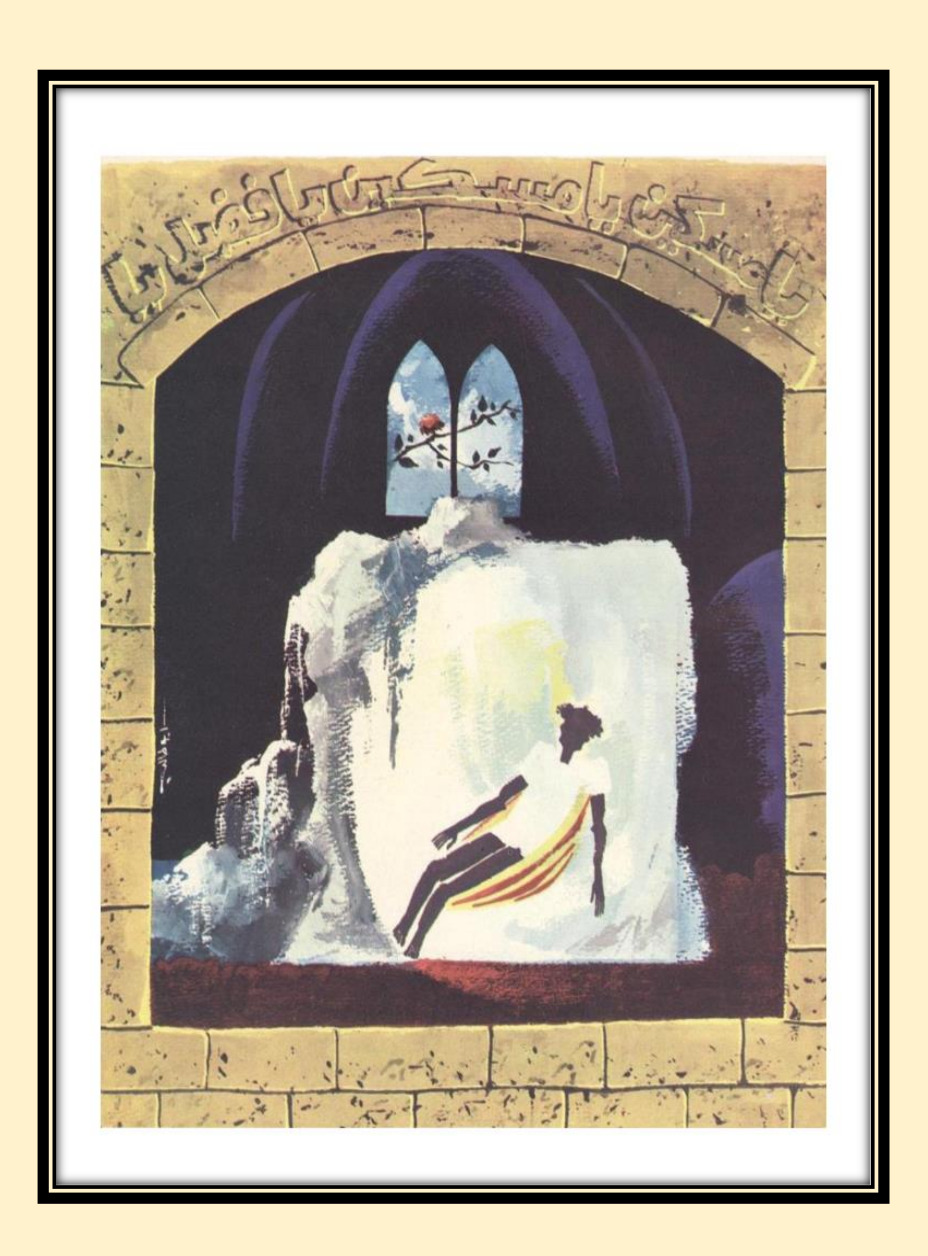
وهذا يشبه تعامل الجماعة الحاكمة مع ما لم يكن في حسبانها ووقع. لقد خلق اللامتوقع الذي وقع وقائع جديدة لم تكن في الحسبان، كما قلنا، وهذ يتطلب التعامل مع الثورة آخذين إياها بالحسبان دون نكرانها والتعامل معها من منطلق الإدانة.

هناك ثابت واحد يجب أن يكون مشتركاً عند أطياف المعارضة وهو الرفض المطلق لبقاء الجماعة الحاكمة ورأسها. لأن حجم الجريمة التي ارتكبتها لا مثيل له في تاريخ الشعوب، والرفض المطلق لجبهة النصرة التي قضت على إمكانية تحول الجيش الحر إلى قوة فاعلة في تحديد المصير، ولأنها حركة نكوصية لا علاقة لها بمفهوم الدولة المعاصرة.

وإنتاج عقل يفكر على هذا النحو يعني بالضرورة إنتاج جبهة سورية موحدة حول الأهداف الكبرى.

هذه الجبهة الموحدة بعقلها الذي يتعامل مع الواقع في تعينه الحاضر، هي القادرة على التعامل مع القوى الخارجية التي حولت القضية السورية إلى مسألة دولية، وتفرض وجودها على أي تفكير دولي بسوريا.

والتفكير المنهجي وفق منطق الواقع واحتمالاته وتوفير سبل فهمه وتغييره وحده الكفيل بالانتقال من حالة عطالة الإرادة الشعبية إلى حالة نشاطها الفعّال.



يا مسكين يا مسكين

في معنى التسوية واستحالتها

ينطوي مفهوم التسوية على معنى فض النزاعات البشرية، سواء كانت نزاعات فردية أو نزاعات جماعية أو نزاعات دولية.

إنها أي التسوية أن هناك خلافاً بين طرفين على أمر ما وحله يكون بالتراضي بينهما. ولكن هناك أنواع من النزاعات ولكل نوع من الأنواع ذو علاقة بإمكانية التسوية أو استحالتها. وهنا تكمن المشكلة في النظر إلى التسوية.

فالنزاعات الحدودية نزاعات تكون غالباً قابلة للتسوية، وبخاصة إذا كانت الحرب مكلفة للطرفين، وغير قادرة على حل النزاع. وأساس التسوية هنا أن يكون الطرفان قد اعترفا ببعضهما، أي بامتلاك كل طرف جزءاً من الحق. وعندها يعلن الطرفان أنهما قدما تنازلات مؤلمة درءاً لنشوب الصراع المسلح.

والتنازلات المؤلمة هنا تعني أن كل طرف يعتقد أنه تنازل عن جزء من حقه للآخر.

إذاً دعوني أُعرّف التسوية على إنها حل لنزاع حول الحق. لكن الحق هنا حق واقعي وليس ادعاءً، وهذا هو الذي يجعل التسوية ممكنة. لأنها اعتراف الطرفين بحقوق بعضهما. ولكن عندما يكون هناك صراع بين الحق واللاحق فالتسوية عندها تكون مستحيلة.

فالحق في الحرية والديمقراطية والكرامة نقيضه اللاحق في ممارسة العبودية والاستبداد والإذلال للآخر. تخيّل أن يكون هناك تسوية بين العبودية والحرية وبين الديمقراطية والاستبداد وبين الكرامة والذل. التسوية هنا لا تجري على

تضاد كهذا. بل إن مبدأ الثالث المرفوع في المنطق هو منطقها: إما وإما ولا وسط بينهما.

هذه المقدمة المنهجية ضرورية جداً جداً لفهم إمكانية التسوية أو استحالتها. فالعمل السياسي ليس عملاً رغبوياً قائماً على الوهم والجهل. السياسة في أحد تعريفاتها فن تحقيق الممكن.

فالتسوية التي يسعى ظاهرياً إليها العالم، في الصراع الدائر بين حق الشعب السوري في الحرية والديمقراطية من جهة، والباطل المطلق للدكتاتورية والاستبداد من جهة أخرى، تسوية مستحيلة.

أي عقل قاصر هذا الذي يعتقد بإمكانية تسوية بين بنية دكتاتورية متخلفة بكل أدوات عنفها ومدعومة من أسوأ سلطة لاهوتية تحكم إيران، وبنية جديدة مأمولة لسوريا الديمقراطية؟!

أي تسوية ممكنة بين بنية متخلفة دمرت ثلاثة أرباع البلاد وشردت الملايين واستدعت ميليشيات الوسخ التاريخ لاحتلال الشام، وشعب يتوق للحرية والكرامة الإنسانية ويسعى نحو قطيعة مع نصف قرن من الظلام والانحطاط؟

وبالمناسبة إن الخامنئي وسلطته المتخلفة القروسطية، وميليشيات الوسخ التاريخي والجماعة الحاكمة البدائية كل هؤلاء لن يرضوا بأي ممكن يسلبهم واحد بالمئة من اللاحق الذي يملكونه. وكل من يعتقد غير ذلك فهو واهم.

ويسألونك ما الحل إذاً؟

في هذه اللحظة لا حل، وتفسخ جثة البنية الحاكمة عملية مستمرة ولكنها قد تطول إلا إذا توحدت إرادة المعذبين على اختلاف انتماءاتهم.

شذرات في الطاغية

-١-

الطاغية ذات السلطة المطلقة المحتكرة للقوة، تدمن على القوة والسيطرة. ولا يمكن أن تبرأ من هذا الإدمان أبداً. فليس هناك من مشفى خاص لعلاج "الطغاة" من الإدمان على القوة والسيطرة، فتموت الذات وهي في حال إدمان، سواء ماتت بصورة طبيعية، أو ماتت عبر تمرد، ثورة، اغتيال.

ومن أهم عوارض الإدمان هذا الشك الدائم بالذوات السيارة حولها، والرافضة لها والخوف من الموت. والطاغية إذا ما واجه خطراً حقيقياً محدقاً به – وبسبب إدمانه- يقامر مقامرة مطلقة حتى بآخر نفس من أنفاسه، إنه حتى ولو أحاطت به كل الظروف التي تنذر بنهايته فإنه لا يفقد الأمل بتجاوز المحنة حتى خسارته النهائية – الموت.

وهكذا نحصل على وجود في غاية التعقيد، ذات مركزية قوية، محتكرة، سادية، خائفة، شكاكة، مدمنة، مقامرة، خاضعة، مُخضعة، مبتذلة، مريضة بكل أشكال البرانويا "جنون العظمة" والحق أن الذوات السيارة حول الطاغية هي التي تحقنه بمصل جنون العظمة الذي لا شفاء منه أبداً.

-٢-

على امتداد عقود من الزمن والطغاة يعملون خناجرهم في روح التاريخ - الشعب، ملحقين به الهزيمة تلو الهزيمة. ولأن روح التاريخ هي روح الشعب فإن الخناجر التي طعنت روح التاريخ بوصفها روح الشعب، ظلت مسلولة للحفاظ على هزيمة التاريخ.

-٣-

إن الطاغية مؤسس سياسة الهبش والنهب والفساد والقتل، وهو لهذا شر مطلق، شر قادر على تدمير البلاد والعباد. وليس البديل عن هذا الشر شراً آخر يتوهم فرض وهم أيديولوجي بالقوة على البشر. وليست الأصولية بكل أنواعها بديلاً عن الدولة المستبدة القاتلة، بل هي الوجه الآخر لها.

-٤-

الطغاة قتلة الأمهات، كل أم ثكلى أم قتيلة. لا يمكن لقلب أن يتسع لحب الأم ولقتل أكبادها. الاحتفال بالأم يعني أن نحتفل بأوطان تشبه الأم. قتلة الوطن قتلة الأم، قتلة الحرية قتلة أحضان الأم، قتلة اللغة قتلة الأم، قتلة المرأة قتلة الأم، الطاغية هو الصورة الأوسخ من القتلة.

-٥-

لو أنهم أعلنوا من أول صرخة من صرخات حناجر الساحات تنحّيهم عن السلطة لمروا في ذاكرة الشعوب، رغم كل انحطاطهم ونذالتهم، بقطعة من الكرامة. لكنهم أصروا أن يرحلوا مهانين أذلاء بالمطلق.

-٦-

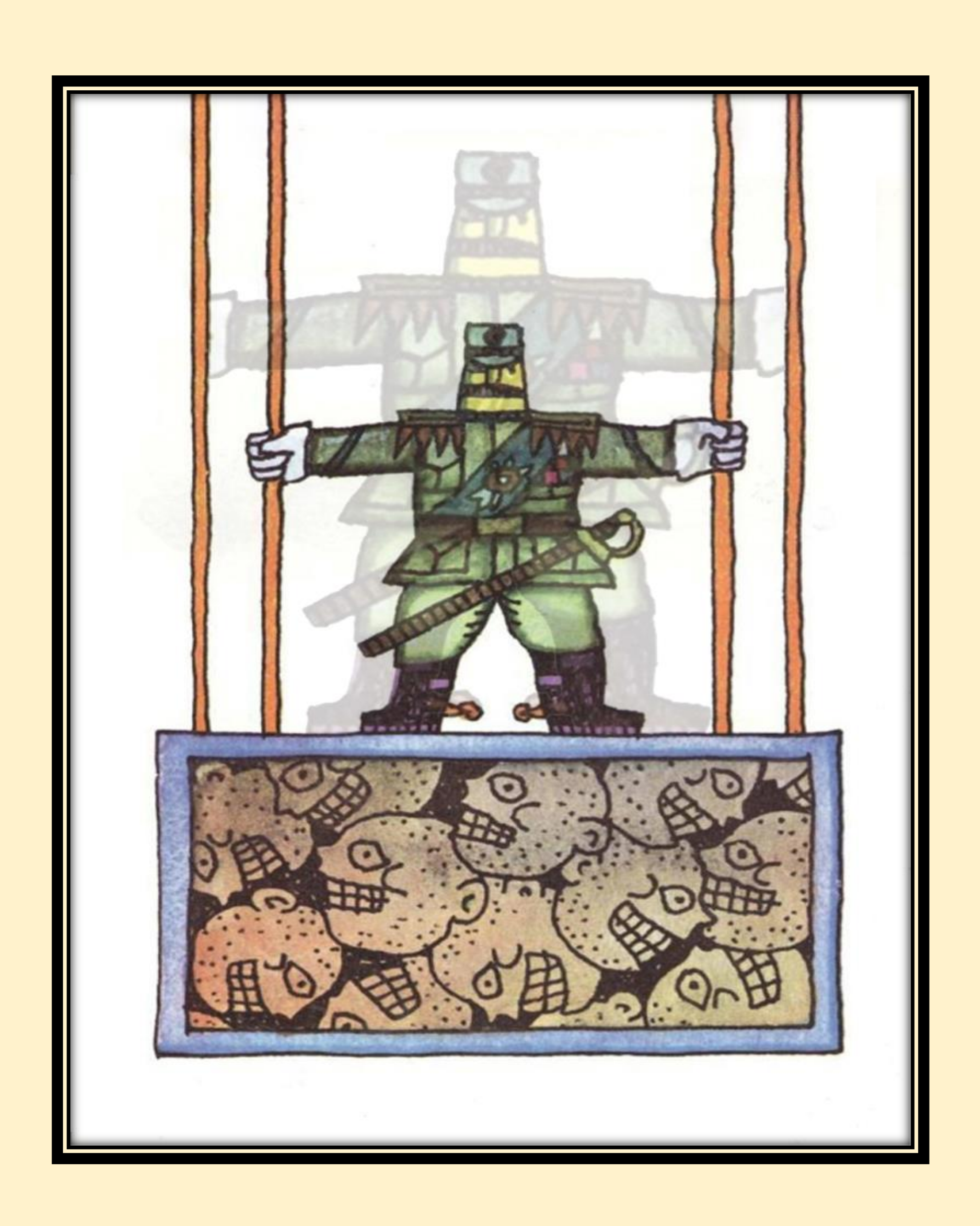
لا يفلح قوم تولى أمرهم طاغية عسكري. حكم العسكر عموماً، وفي بلادنا على وجه الخصوص، يساوي: غياب العقل، غياب الضمير، غياب الوطنية، غياب الحياء. حكم العسكر هو الشر المطلق.

-٧-

روح الشعب مصطلح لا يعرف معناه الطاغية، فيتراءى له أن هذه الروح التي لا أحد يعرف أوان انفجارها قد ماتت، فيستسلم لوهمه، لأن التجربة التاريخية للبشر، آخر ما يفكر بها الدكتاتور، ولهذا هو لا يدري متى تلقي روح الشعب في لحظة انفجارها البنية الدكتاتورية في مزبلة التاريخ.

-٨-

أما قطيع الدكتاتور فسرعان ما ينزوي في ركن مظلم من زوايا الوسخ التاريخي، ليمثل دور الضحية التي لا حول لها ولا قوة.



الدكتاتور واغتيال الرموز الوطنية

ماذا يعني الرمز الوطني هنا في هذا المقال؟

يعني أن هناك شخصيات ما ذات أثر في التاريخ الإبداعي أو السياسي أو الكفاحي وأصبحت رموزاً وطنية لشعب من الشعوب، وبعضها صار رموزاً لجماعات ضيقة، وأخرى تصل حد الرمز الإنساني.

فإذا أخذت رموز فلسطين المعاصرة مثلاً فإن غسان كنفاني ومحمود درويش تحولا إلى رمزين للمبدعين المكافحين، والقسام وأبو عمار إلى رمزين للكفاح النضالي.

وفي سوريا المعاصرة فإن عمر أبو ريشة ونزار قباني رمزان وطنيان للإبداع الشعري، ويوسف العظمة وهنانو والشهبندر والأطرش رموز للفداء من أجل الوطن. وقس على ذلك نجيب محفوظ وجمال عبد الناصر وأم كلثوم في مصر، وهكذا.

وفي التاريخ العربي فإن أصحاب المعلقات وأبا تمام والمتنبي والمعري وابن رشد وابن عربي وغيرهم صاروا رموز الإبداع، وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح وصلاح الدين الأيوبي رموز القادة.. وهكذا.

إن أول ما يقوم به الدكتاتور وأجهزته الأيديولوجية من إعلام وكتب مدرسية وخطابات انتهازية هو قتل الذاكرة الوطنية انطلاقاً من وعيه بذاته بوصفه الأقل شأناً وحضوراً. فالتاريخ يبدأ به وبتجلياته الزائفة، وتقوم أدوات الإعدام بتعليق

المشانق لكل رموز الثقافة والكفاح الوطني وتحرم الأجيال من التعرف عليها وحذفها من مناهج التعليم ومن وسائل الإعلام

يطلق اسم الدكتاتور على الشوارع والساحات والسدود ودور الثقافة وما شابه ذلك. والحق أن الخراب الذي يلحقه الدكتاتور بالذاكرة الوطنية أكثر خطورة من الخراب الذي يلحقه في مجالات الحياة الأخرى. لأنه يمس شعور الجماعة بالتاريخ كمقوم من مقومات الانتماء.

الرموز الوطنية تتحول في وعي المجتمع إلى ثقافة موضوعية تتوارثها الأجيال بوصفها مقوّماً من مقومات وجودها الوطني.

ولهذا إن أول ما يجب القيام به، في هذا الزمن الذي يشهد أسوأ أشكال الاعتداء على الوطنية، إعادة الحياة إلى الرموز الوطنية والثقافية واستعادتها بكل ثرائها العملي والإبداعي، لتشكل جزءاً لا يتجزأ من الكفاح من أجل الحرية.

بل قل إن تحرير الضمير الوطني من النسيان لا ينفصل عن تحرير الإنسان. لأن كليهما دريئة لإطلاق الرصاص من قبل الدكتاتور وعصابات الإعدام التي تحرسه. حين ينتصر مفهوم الوطن ويغدو حقل الوجود الحر وتنهزم الديكتاتورية بكل قبحها وإفقارها للحياة يزداد ثراء الذاكرة الوطنية بالعلامات المضيئة والدالة على عظمة الشعب.

الطاغية ومملكة العبيد

نعرّف الطاغية بأنه العبد المطلق للسلطة. وكل طاغية بوصفه عبداً يعلم علم اليقين أن بقاء عبوديته، التي هي جوهر بقائه في السلطة، رهن بتوافر ثلاثة أمور:

أولاً: القوة المادية القمعية بحدودها القصوى.

ثانياً: أدوات استخدام القوة وتنفيذ مهامها في درء الخطر المحدق بوجود الدكتاتور العبد، أدوات تتكون من عبيد خُلص، لم تتجاوز طبيعتها البيولوجية، تدين بالولاء المطلق للطاغية، وتمارس عبوديتها بوهم خادع على أنها ذات حظ من السيادة.

ثالثاً: تعميم العبودية مجتمعياً، بحيث يخضع الناس ويخنعون للعبد الطاغية.

وهكذا تتكون مملكة العبودية: عبد طاغية، أدوات عبيد، وشعب من العبيد.

فيتغير مفهوم الوطن من زمان ومكان يمنحان الشعور بالفرح والحب والكبرياء إلى مكان وزمان يبعثان فيك الخوف وعدم الأمان وكره العالم الذي تعيش فيه.

ينقلك نظام الطاغية والعبودية من زمان تملكه إلى زمان مسروق منك، أجل سرقوا الزمان واحتلوا المكان واعتدوا على الكبرياء واغتالوا اللغة وأتوا بكل أشكال الوسخ التاريخي القاتل وقضوا على مفهوم الوطن.

لكن الطاغية العبد وعبيده، يظنون ظناً أنهم أفلحوا في تحويل الناس المحكومين إلى عبيد، ناسين أن الناس واعون بعبوديتهم، وبالتالي شاعرون بحريتهم.

فالشرط الأول لتحول العبيد إلى فاعل تاريخي في مسار وعي الحرية لذاتها بالمعنى الهيجلي للكلمة، هو وعي العبيد بعبوديتهم، وهذا شرط ضروري لكفاحهم

من أجل حريتهم، أما العبد الذي لا يعي عبوديته، فهو والأشياء التي لا عقل لها سيّان.

إن وعي العبد بعبوديته يعنى أن الأصل بحياة الكائن هذا الواعي لعبوديته، هو الحرية. وتصبح العبودية هنا سلباً للحرية، لحرية يعيها العبد. فالعبد هنا، حر مسلوب الإرادة.

لكن هيجل لم يتخيل شخصاً فخوراً بعبوديته، ومدافعاً عنها عبر دفاعه الواعي عن سيده. فالسعداء بعبوديتهم لسيدهم هم آلة الإجرام الحقيقية التي يمتلكها سيدهم كما قلت. وكما يبذر المقامر أمواله على طاولة القمار طمعاً بالربح يبذر مالك العبيد عبيده في ساحة الحرب طمعاً بالنصر.

يحول الطاغية الوطن، كل الوطن إلى طاولة قمار، ويقحم عبيده في عالم القتل والحرب أمام الثورة الشعبية، دون أن يكترث بحجم الرأسمال البشري الذي يبذره على طاولة القمار.

وليس هذا فحسب، فإن مالك العبيد وقد خسر على طاولة القمار جل عبيده، يحتاج إلى من يمده بترياق البقاء بأي صورة من الصور. فيستنجد بسيد ليبقيه عبداً، والسيد هنا هو دولة قوية ذات مصالح لا تتحقق إلا عبر عبدٍ لها . أو دولة عبودية تمده بعبيد ليلعب بها على طاولة القمار.

تأمّل النصر الذي حققته العبودية: إذا كان النصر هزيمة شعب بفضل قوة عالمية عسكرية همجية، ودولة دينية يحكمها ولي فقيه متخلف، وميليشيات طائفية تمثل بقايا الوسخ التاريخي، وفقدان شمال البلاد بمساحة ٢٠ألف كم٢، وفقدان

السيادة على الحدود، وتحكم غرباء في سياسة البلاد الخارجية والداخلية، ومقتل مليون سوري، وتهجير عشرة ملايين، وتدمير البنى التحتية، والبحث عن ممولين لإعمار ما دمرته الطائرات التي انهالت قذائفها على البلاد والعباد، إعمار يحتاج إلى ٩٠٠ مليار دولار، واتساع حال الفقر بين السكان، وفقدانهم شروط الحياة من ماء وكهرباء وغاز!

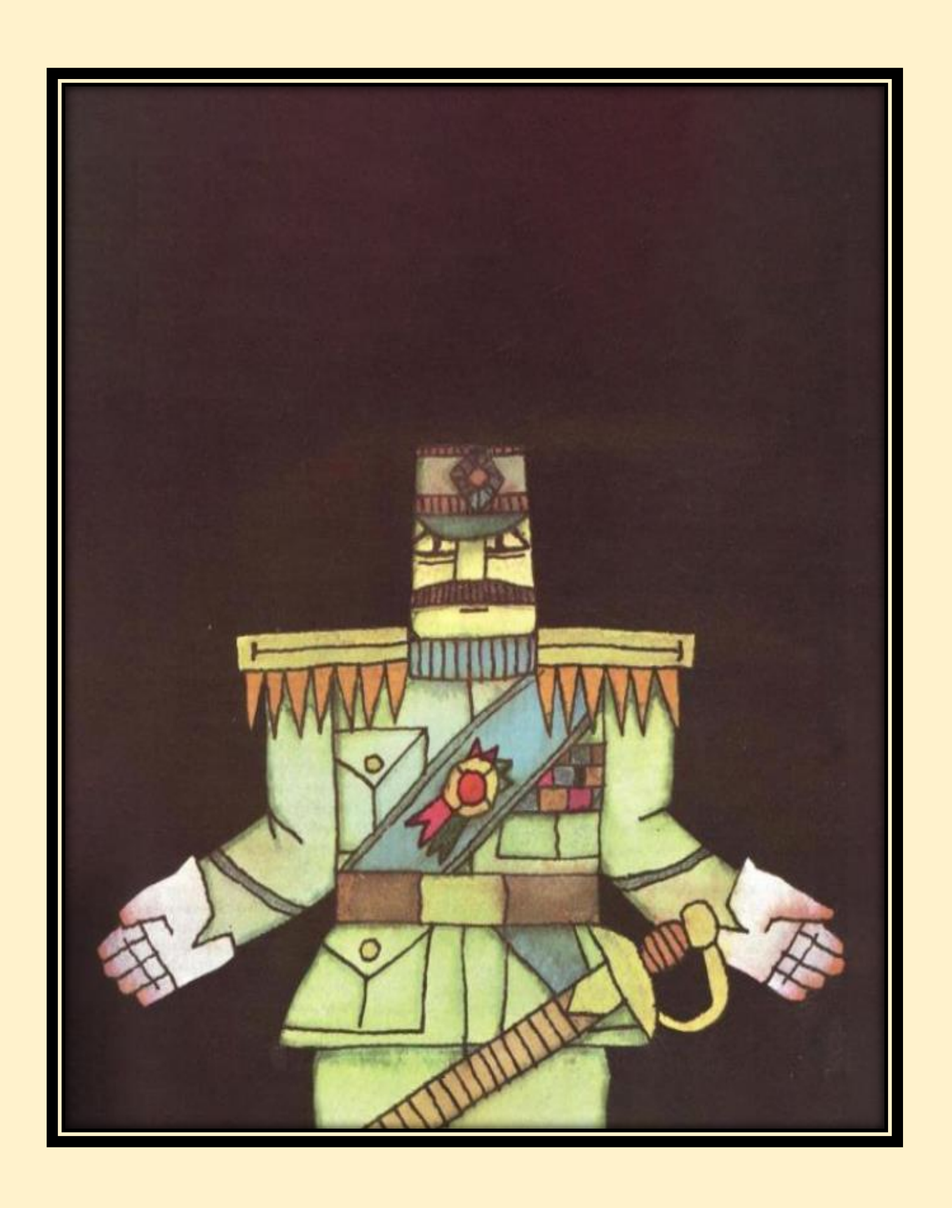
إذا كان هذا هو النصر الذي يُفتخر به، فهذا أغرب نصر في تاريخ البشرية، أو قل هكذا تنتصر سلطة همجية على شعب حكمته بالقوة وتريد أن تستمر في حكمه بالقوة. ألا بئس سلطة تفتخر بالخراب والدمار والقتل وفقدان الكرامة، وترى في كل هذا نصراً.

الطاغية المنتصر يمنحه النصر جثة وليس وطناً، وخراباً ودماراً وفقراً ومجرمي حرب، وأغنياء حرب، ومستعمراً من نوع جديد ،جاء إليه بدعوة منه، الطاغية يقدم الوطن للمستعمر على طبق من ذهب.

ولأن المستعمر الجديد جاء بفضل الطاغية، ودفاعاً عن وجود الطاغية الذي منحه البلد، فلك أيها القارئ العزيز أن تخيل طبيعة هذا المستعمر وسلوكه.

وهكذا نحصل على طاغية عبد متخلف تاريخياً، ومستعمر متأخر حضارياً، وهزيمة منكرة للعقل فتكتمل دائرة الدمار الكلي.

وحين يطرح الشعب، عبر نخبه العقلية السؤال: كيف يمكن تجاوز هذا الدمار، والتحرر من العبودية؟، فإن الجواب، بوصفه تأملاً ونظراً وممارسة، لن يكون إلا جواباً تاريخياً. جواباً لا يستعجل الزمان، ويوفر الشرط الإرادي للممكن الذي اكتشفه الجواب التاريخي.



الحر والعبد

يعرّف المعجم العربي كلمة حر بنقيضها: الحر عكس العبد والأسير. وتعريف الشيء، يعني أن التحديد لا يحصل على ماهيته إلا بنقيضه. ولما كانت اللغة تواضعاً وتعبيراً عن وعي ما، فإن وعي الحرية عربياً ارتبط بمرحلة العبودية، حيث العبد أداة شيئية مملوكة من قبل كائن آخر هو الحر. فالحر بهذا المعنى، هو الذي ليس مملوكاً من أحد.

وإذا كان العبد هو الخاضع للسيد وشيئاً من أشياء السيد والأسير عكس الطليق فإن الحر هو الذات وقد تحررت من كل ما يخضعها ويأسرها.

والعرب لم يتصوروا اجتماع الحرية والعبودية في ذات واحدة، في شخص ما، ويبقى هذا الشخص كائناً سوياً.

إذاً الإنسان كما تصوره وعي السيد العربي إما حر أو عبد. هذا التحديد البسيط للحر لا يقبض على التعينات المتعددة لوجود السيد والعبد.

فلم يتصور العربي رجل السلطة عبداً للسلطة، لم يدخل في خلده أن عبد السلطة لا يمكن أن يكون حراً وعبد القصر لا يمكن أن يكون طليقاً إذاً هو عكس الحر: فتخيل أن يكون حاكمك عبداً وأسيراً.

العبودية للسلطة من قبل المتسلط تعني أن ما يُظن بأنه سيد ليس سوى عبد أشر، ويقضي حياته دفاعاً عن عبوديته. والخطورة تكمن في سعادته بعبوديته وأسره ظنا منه أنه سيد. فيسعى للحفاظ على الحال التي هو عليها في عداء مطلق للحرية والأحرار. ففي الوقت الذي يستخدم فيه عنف العبد تجاه الأحرار قتلاً وتعذيباً خضوعاً للسلطة والقصر يظهر عبودية الخضوع والأسر أمام الأقوياء

القادرين على إنهائه من الوجود أو من عبوديته التي أدمن عليها. إن الخنوع والذل أمام الأقوياء لا يفسَّر إلا بالبنية النفسية للعبد. وهنا تبرز إلى الوجود قيمه الحقيقية حيث لا وجود لأثر الكرامة الوطنية فيها.

والحق أن داء السلطة إذا ما تمكن من العبد فهو داء عضال لا شفاء منه. داء أهم أعراضه الخنوع. فكل ذات تستعير قوتها من قوة آخر تنطوي بالضرورة على روح العبودية، وآية ذلك أن الذات صارت تابعة لقوة من خارجها، واستمرار وجودها الفيزيائي مرتبط باستمرار حفاظ القوة الخارجية عليها.

وهكذا نحصل على السيد الزائف. وباستطاعتنا أن نعرّف السيد الزائف بأنه: عبد في صورة خارجية من السيادة. أما إذا كان هذا العبد في صورة سيد خارجية مدين بوجوده لعبيده، عندها يكون عبداً لعبيده، على رأي هيجل. وفي هذه الحال نحصل على بنية عبودية معقدة جداً. فالقوة الخارجية التي استعان بها السيد الزائف تحوله إلى عبد حقيقي، وجمهور العبيد الذين يحافظون على وجود السيد الزائف يحولونه إلى عبد حقيقي لهم.

والحق أن واقع العبودية والحرية مرتبط بوعي الأفراد بذاتهم، أي وعيهم بالحرية والعبودية، فعدم شعور العبد بعبوديته لا ينقله هذا إلى فئة الأحرار، ووعي العبد بعبوديته إذا ما نقله هذا الوعي للتحرر يحول العبد إلى حر.

العبودية في غير أوانها التاريخي هي داء ومرض عضال ولا يمكن الخلاص من فيروسات هذا الداء إلا بثورة تلقح المجتمع بلقاح مضاد لكل أشكال العبودية.

إلى المتمرد الذي يصنع للحرية تاريخها

حين ينفجر فيكَ الغضب تمرداً على الشر، فلا تسأل عن الثمن الذي تدفعه، ولكن تذكّر دائماً العقل الذي يقود خطاك.

إذا كنتَ في أول الطريق، ورحتَ تفكر منذ الخطوة الأولى متسائلاً: متى وقت الوصول إلى المحطة الأخيرة؟ فإن التعب والملل سينالان منك، عندها فإنك غالباً، لن تصل إلى ما تريد.

إذا قطعتَ نصف الطريق إلى غايتك العظيمة، فاحتفظ بما أنجزت، واحتفظ بروحك الوقادة، لا تخسره في البحث عمن يحملك على ظهره لقطع النصف الآخر من الطريق، لأنك لن تجد من يحملك أبداً. ولا تصدق وعداً لمن لا يحمل همك، فتخسر ما جنيته.

حين تصل نهاية الطريق، بعد لَأيٍ وعرق ودماء، وترفع راية النصر، فأول ما يجب القيام به خلع ملابس السفر الطويل والاستحمام بماء الحياة الجديدة. والتفكير بحياة الفرح لك وللآخرين، فالسلطة كما قالوا مفسدة، والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة.

في الطريق الطويلة والمنهكة ينال التعب من بعض كهول النفوس ومن شابههم، ويتحولون إلى حكماء حمقى، ويخفون طمعهم بالغنيمة، فلا تغضب منهم، حسبهم لأنهم قد قطعوا جزءاً من المسافة معك، ولكن أبعدهم عن طريقك حتى لا يكونوا عثرة على طريق الحرية.

في جميع الدروب الوعرة المؤدية للحرية هناك قطّاع طرق ملثمون، بكل أشكال اللثام، أو مقنّعون بمختلف الأقنعة، بعضهم يرفع رايتك، وبعضهم يتزايد زيفاً في وسيلة أقوى من وسيلتك، وبعضهم يرفع رايات غامضة.
تحاشَهُم، واصبر عليهم إن استطعت ثم بادرهم بالقوة لإزاحتهم عن دربك، لكن إياك أن تصافحهم، لأنك إن فعلت فلن تأمن غدرهم حتى ويدك على قبضة السيف.

حين ترفع سلاحك في وجه الطغيان بيد قوية، لا تشغل يدك الأخرى برفع غصن الزيتون، فالشر لا يُصالَح، وإنك إن فعلتَ خسرتَ يدك القوية، وقطعوا يدك الزيتونية.

حين يغشاك الظلام وأنت في الطريق إلى الشمس توقف قليلاً، استرح، ولا تأخذك سِنة من نوم، إياك ثم إياك أن تغمض عينيك لتنام، فإن غرقت بالنوم بانتظار الصباح وطلوع الشمس، أثخنوا في جسدك خناجرهم. بل ابقَ متيقظاً لمواصلة السير مع بزوغ أول شعاع من الشمس.

أيها الساكن قمم الجبال كرامةً وقتالاً إذا دعاك أعداؤك للنزول إلى الوديان التي يسكنون صلحاً، فلا تستجب، فسكان الوديان خبثاء ولئام وغدارون، ادعُهم لأن يصعدوا إليك، ولن يصعدوا، لأنهم يموتون إن استنشقوا الهواء الطلق.

الموقف والمعنى

ما العلاقة التي تقوم بين الوضع المَعيش واتخاذ الموقف في لحظات التاريخ المفصلية؟ والتي نصوغها بالسؤال: ما معنى الموقف من الحياة والوجود والتاريخ والمصير والإنسان، **لماذا يتخذ الإنسان موقفاً؟**

السؤال لماذا يتخذ الإنسان موقفاً جوابه سهل ولا يحتاج إلى عناء. فالموقف هو تعبير عن نظرة إلى الحياة ومعنى وجود الإنسان. وجميع البشر بلا استثناء لديهم نظرة إلى الحياة ومعنى لوجودهم. من الفلاح والعامل وحتى الفيلسوف والشاعر مروراً بالثري والفئات الوسطى الخ.

النظرة إلى الحياة تعني أن كل فرد يمنح حياته معنى ما بل معاني و يمضي في طريقه على هديها. وليس هذا فحسب فحين يختار الإنسان معاني حياته عبر تأمل وتعقل بالحياة، مهما كانت ماهياتها، فإنه عملياً، يظهر حريته.

فيما القتلة والمجرمون والسياسيون والدكتاتوريون وأمراء الحروب والهبّاشون، وهم يخوضون حربهم بمعنى الحياة الوضيع، يطرحون أمام البسطاء من الناس المعاني الأثيرة لديهم والمتطابقة مع هوياتهم الساكنة.

الدكتاتور القاتل والذي ولد في بنية قاتلة يواجه المعاني النبيلة للبشر النابعة من شعورهم بالحرية بمعانٍ زائفة تخفي معنى وجوده الوضيع في الحكم عبر القتل، فتصبح العروبة والممانعة والصراع مع الصهيونية ومواجهة الإرهاب عدته الأيديولوجية لجر العدد الأكبر إلى ساحة معركته المنحطّة. وحليفه المعمم لن يقول للبسطاء هيا إلى الحرب دفاعاً عن جماعة حاكمة لنا مصلحة باستمرار حكمها،

بل يدعوهم باسم الأسماء الأثيرة التي تسكن هويتهم الطائفية: فيصبح الدفاع عن زينب وفاطمة والثأر لمقتل الحسين والانتقام من يزيد وما شابه ذلك من أسماء، ستارة المعنى الزائفة التي تخفي المعنى الوضيع الحقيقي لجر الناس إلى القتال. وقِس على ذلك المعمم الآخر النقيض الذي يدعو البشر للموت في سبيل الخلافة وتحقيق حكم الله، لأن الحاكمية لله وحده، فيمارس قتل المختلفين بدم بارد باسم الأمر الإلهي.

وهكذا يتحد الدكتاتور القاتل والعمامة المجرمة بهدف مشترك، ألا وهو العداء للحياة. ولهذا فإن القتل والإجرام والتدمير هي أشكال السلوك الطبيعة لأعداء الحياة.

أحباء الحياة الحرة، الحياة المتحدة بقيمة الإنسان الحر، يخوضون معركتهم بوصفها معركة معنى الحياة كما يجب أن تكون، حياة تتحد فيها قيم الوجود الحر ومركزية الإنسان. هذا المعنى يتجاوز النظرة البيولوجية للإنسان، يتجاوز مستوى الحياة المعيشة الخاصة. ويعلن بكل وضوح: أنا حر إذاً أنا أكون. فمعنى الحياة الذي ينطلق منه الإنسان هو الذي يحدد سلوكه تجاه الحياة، بمعزل عن وضعه الحياتي المعيش، والصراعات صراعات معانٍ متعينة بالأفراد والجماعات. فمعاني الحرية والديمقراطية والعلمانية والكرامة الفردية والوطنية والحق والقانون والأمان المادي والروحي والانتماء إليها هي التي تقودنا إلى الالتزام الوطني والإنساني والأخلاقي، وبالتالي التعلل بوضع مادي ما للتحرر من معنى الوجود المدافع عن الحرية والكرامة، موقف منحطّ أخلاقياً.

قطّاع طرق التاريخ مرة أخرى

كتبنا مرة عن قطاع طرق التاريخ، ولم نستنفد القول بالكشف عن ماهياتهم وأشكالهم، ولهذا نكتب مرة أخرى عن أخطر ظاهرة تواجه مسار تاريخ العرب، أجل إنهم قطاع طرق التاريخ.

يسير تاريخ البشر بخطًا بطيئة، في أغلب الأحايين، نحو مآلاته الأخيرة، دون أن يكون على وعي كافٍ بغاية مسبقة بالأصل من مساره، إلا الغايات التي يمنحها البشر له. وإذا ما واجه عقبات في مساره، فإنه يقفز عنها - أو يحاول- لمتابعة مجراه، وهذا ما أطلق عليه المفكرون "الثورة"، والحروب الداخلية، أحياناً.

ولقد تعرض التاريخ العربي المعاصر إلى جرائم كبيرة، ارتكبها من أسمّيهم "قطّاع طرق التاريخ"، وقطّاع طرق التاريخ أنواع ثلاثة: قاطع طريق خارجي، وقاطع طريق داخلي، وقاطع طريق مختلط خارجي وداخلي معاً.

أما قاطع الطريق الخارجي فأمره معروف، بدأ مع الاستعمار التقليدي للعرب، واستمر مع الاستعمار الجديد، وما زال مستمراً، بدول الهيمنة المتعولمة. فقاطع الطريق الأوروبي الفرنسي-البريطاني -مثلًا- حرم تاريخ بلاد الشام أن يسير سيره الطبيعي، وساعد الحركة الصهيونية -وهي حركة أوروبية- على قطع الطريق أمام

فلسطين مرتين: مرة حين فصلها عن بلاد الشام، ومرة حين حرمها من سيرها الطبيعي على غرار جبل لبنان وشرق الأردن.

لا أحتاج إلى كبير عناء لأعرض كيف قطع الأميركي والبريطاني مسارَ التاريخ العراقي، وحال دون حدوث قفزة ليتحرر من الدكتاتورية. أما قاطع الطريق الداخلي فحدّث ولا حرج، فقادة الانقلابات العسكرية هم في الغالب قطّاع طرق التاريخ الأوباش، الذين استعانوا بالأيديولوجيات الشعبوية حتى يتحولوا إلى قطّاع طرق شرعيين.

لكن التاريخ أنتج في مقابلهم قطاع طرق يشبهونهم، يلعبون دور النقيض وما هم بالنقيض. وليس هناك أخطر من الصراع بين قطاع طرق التاريخ، لأنه صراع قد ينتهي إلى انتصار قاطع الطريق الأكثر خبثاً والأكثر إجراماً.

وقطّاع الطرق الداخليون غالباً ما يستعينون بقطّاع الطرق الخارجيين؛ ويصبحون مع الأيام قطّاع طرق تابعين وخادمين، وذلك لأنه يعي أن استمراره قاطعَ طريق مرتبط باستمرار موافقة قاطع الطريق الأكبر: الخارجي.

المتأمل فيما يجري، على وجه الخصوص في سورية والعراق واليمن ولبنان، يدرك أمرين: تنوّع قطاع الطرق الداخليين، وصراعاتهم وتبعيتهم لقطاع الطرق الخارجيين.

فالثورة السورية السلمية، في حقيقتها، هي ثورة ضد قاطع طريق مسار سورية الطبيعي، ولفتح الطريق أمام جريانه نحو الحرية والديمقراطية والتنمية والعيش المشترك في دولة القانون المعبر عن حق الإنسان.

لم يستسلم قاطع الطريق، بل قرر أن يستمر ويقطع الطريق أمام الثورة السورية معتداً بقوته العسكرية والأمنية. وحين أعيته الحيلة ولم يستطع أن يواجه شعبية الثورة استعان بقطاع طرق خارجيّين -الميليشيات الطائفية الشيعية من لبنان والعراق وإيران وأفغانستان- ثم استعان بقاطع طريق عالمي هو روسيا، وإقليمي هو إيران.

ليس هذا فحسب، بل ثمة ما هو أخطر من ذلك، وهو أن الثورة السورية الشعبية، بوصفها قفزة، تعرّضت لقطاع طرق ليسوا أقل همجية، وهم قطاع الطرق الإسلامويون الذين طعنوا التاريخ بظهره طعنات شبه قاتلة، كـ (داعش والنصرة) وما شابههما. ثم كان لقاطع الطريق الخارجي (الأميركي) حساباته هي الأخرى التي لا تريد لمسار التاريخ السوري أن يستعيد مجراه الطبيعي.

انظر إلى أسوأ قاطع طرق في تاريخ لبنان منذ أن أسسه غورو، ألا وهو حزب الله. فلقد قضت ميليشيا حزب الله على تجربة رفيق الحريري في تأسيس التعايش بعد الحرب، وقامت باغتياله، ثم دمرت مفهوم الدولة التي من أهم سماتها احتكار القوة العسكرية والأمنية، وسيطرت ميليشيا مسلحة بأيديولوجيا طائفية، على الدولة واحتكرت القوة، وليس هذا فحسب بل حولت القوة إلى عائق أمام التطور الطبيعي للبنان، مدعومة من أخطر قاطع تاريخ واجهه العرب، بعد قاطع التاريخ الصهيوني، وهو قاطع التاريخ الإيراني.

قس على ذلك قطاع طرق التاريخ في العراق، المتكونين من قطاع طرق طائفيين حاكمين وطائفيين داعشيين، ودول مما هبّ ودبّ. وقس على ذلك أيضاً بقية الدول الآنفة الذكر على صور مختلفة.

والحق أننا نشهد، في هذه المرحلة من تاريخ المنطقة، مسرحية كوميدية غريبة: نشهد صراعاً بين قطاع الطرق من جهة وتحالف قطاع الطرق ضد الناس -أهل التاريخ الحقيقي- الذين يسعون لتحرير مساره من كل قطاع طرق التاريخ، من جهة ثانية. مرة أخرى نقول ليس هناك أسوأ من الصراع بين قطاع الطرق على السيطرة، وبالتالي إن الأيديولوجيا التي تزين سلوك قطاع الطرق هي أيديولوجيا قتل بالضرورة.

نحو أسئلة جديدة

حين لا يقدم الواقع أجوبة عن أسئلة يطرحها الفكر فإننا نكون إذ ذاك أمام أحد احتمالين: إما أن الأسئلة التي طرحناها على الواقع أسئلة زائفة، والأسئلة الزائفة لا جواب واقعياً عنها، أو أن الواقع راكد إلى الحد الذي ليس باستطاعته أن يجيب.

نقدم بهذه الفكرة ابتداءً لأننا أمام مشكلة جدّ معقدة ألا وهي: كيف تأتّى أن تكون بعض أسئلة الراهن أسئلة طُرحت قبل قرن ونيف من الزمان؟

أجل: فسؤال التقدم التاريخي الذي طرحه النهضويون العرب ما زال سؤال المعاصرين من المفكرين العرب. وسؤال نحن والغرب الذي جهد الفكر النهضوي لفضّه، ما زال راهناً بل وحاضراً بصورة أكثر إلحاحاً.

ناهيك عن أسئلة الدين والعلم والفلسفة واللاهوت، ونظام الحكم، والتجديد الديني. أتراها أسئلة يطرحها الوعي العربي انطلاقاً من رؤية العالم كما يجب أن يكون، أم هي أسئلة ناتجة عن وعي العالم كما هو أو بما ينطوي على إمكانيات تحتاج إلى إرادة مولدة للأجنة.

القول بأن الواقع راكد لم يتغير منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتي هذه اللحظة المعيشة، قول يتناقض مع سيرورة التاريخ الفعلية. لكن التغير لم يكن في اتجاه الإجابة الواقعية عن أسئلة الفكر العربي الحديث. أي إن أياً من أهداف عصر النهضة العربية لم يجد طريقه إلى التحقق.

فإذن الأهداف تعبير عن أوتوبيا مفكرين يعيشون هاجس البشر الحقيقي والأصيل، لكنهم ما كانوا يمتلكون حاسة الشم التاريخي. وفي كل الأحوال لسنا في معرض محاكمة فكر النهضة العربية واستطالاته، ولا في إطار الحكم علي فكر ما بين الحربين وما بعدها. لسنا في وارد هذا كله. كل ما نسأل لماذا أسئلتنا الراهنة أشبه بأسئلة الماضي القريب؟

أليس من الحكمة والحال هذه أن نتحرر من أسئلة الماضي القريب ونطرح أسئلتنا المعاصرة، أي أهدافنا الواقعية؟. فلطالما أن أهدافنا القديمة قد مضى حين من الدهر على طرحها دون أن ترى النور؟

نحن أمام مشكلة حقيقية. المشكلة هي التالية: علاقة الطموحات بالواقع. إذا ما نظرنا إلى المسألة من هذه الزاوية فإن الأسئلة نفسها التي طرحت في الماضي يمكن أن تصبح واقعية إذا ما أُحسن البحث عن أجوبة واقعية عنها.

تقوم أطروحتي على أن لا شيء قابل للتحقق تاريخياً إذا لم يكن بالأصل إمكانية قابعة في قلب الواقع. ومن المحال تكسير رأس التاريخ لإجباره على أن يكون كما نريد دون أن يكون التاريخ في حالة حمل صادق، أقول صادق لأن أكثر المشكلات في الحمل الكاذب الذي يخدع الإرادة.

وبارتباط هذه الأطروحة نقول: إن إمكانية قابعة في قلب التاريخ تظل قابعة فيه إذا لم تجد الإرادة الفاعلة لنقلها إلى إمكانية.

إذا انطلقنا من هذه الأطروحة الصادقة تاريخياً والتي هي منهج في التفكير وحللنا وفقها العلاقة بين أسئلة الفكر العربي وبين الواقع ندرك أمرين: لماذا أخفقت الأفكار بالمعنى التاريخي؟ وما هي الأفكار القابلة للتحقق؟.

الأفكار هنا مأخوذة بوضعها أهدافاً أسئلة. والإخفاق هنا معناه عدم التحقق. إذن إما أن أهدافنا إمكانيات لم تجد الإرادة، أو إرادة واعية أنتجت أهدافنا دون أن تكون إمكانيات.

لقد طرح علينا الربيع العربي بكل تجاربه أسئلة جديدة مختلفة عن تلك الأسئلة القديمة التي ما زال البعض يراها قمينة بالنظر.

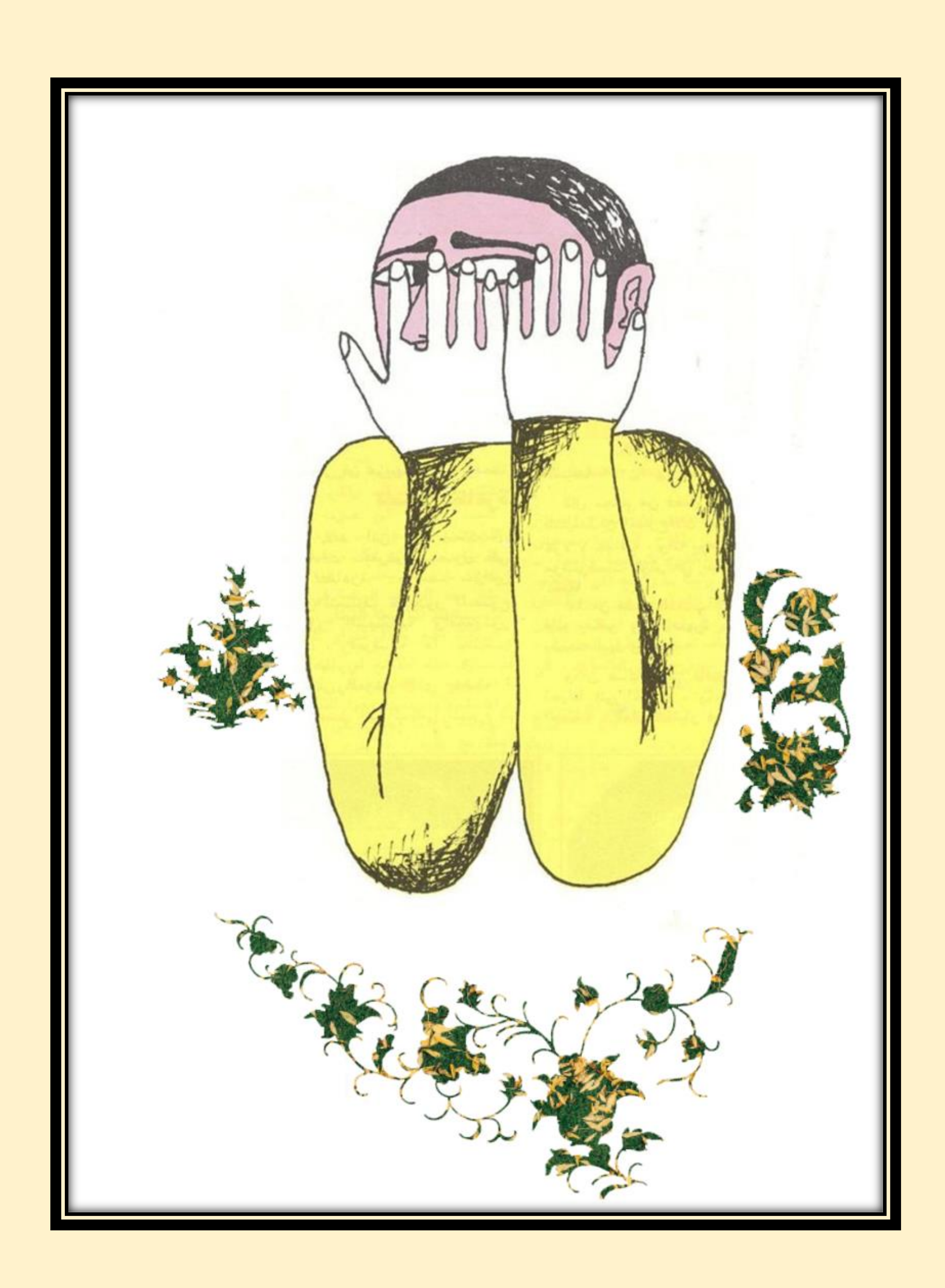
ولعمري إن سؤال ما السلطة؟ وما السلطة السياسية؟، أحد أهم الأسئلة العربية في الوقت الراهن.

وتتفتّق عن هذا السؤال أسئلة أخرى أهمها:

كيف تتحول الدول العربية الراهنة إلى دول بالمعنى الذي تحدده معايير الحضارة؟

ما دور السلط الحاكمة في الحيلولة دون قيام الدولة؟ ما الدور الذي تقوم به السلطة الدينية سواء كانت مسيسة أم تقليدية في حياة الوعي بالعالم سلباً أو إيجاباً؟ ما علاقة البنى العربية الراهنة بالتاريخ؟ وهكذا.

إن هذه الأسئلة وغيرها إذا ما وجدت الإجابات الواقعية عنها فإنها تمد الإرادة بقوة، قوة تحول الممكنات إلى واقع.



المبدع والربيع

قلنا المبدع ولم نقل المثقف، جرياً على المألوف. فنحن هنا أكثر تحديداً وبالتالي أكثر قدرة على التقاط الموقف. فالعينة هنا واضحة لا يشوبها إلا الاتفاق على ماهية المبدع وعلى نسبة المنتمين إلى الإبداع.

ولسنا في معرض عقد جلسة محاكمة لنقرر من هو المبدع العربي الذي يتميز عن سواه وعمن ليس بمبدع. المبدع عندي هو الفيلسوف والشاعر والروائي والمسرحي والقاص والمخترع والموسيقي والرسام والنحات والمخرج والممثل وما شابه ذلك. ولأننا لسنا في معرض التقويم للإبداع بل في رصد الموقف فكل من يراه الناس مبدعاً وكل من يرى نفسه مبدعاً من هؤلاء جميعاً هو مبدع.

وليس غريباً أيضاً أن سمّت العرب هؤلاء بالمبدعين، فالفعل أبدع يساوي خلق على غير غرار، بل هو أقوى من فعل خلق، لأن الإبداع إيجاد من العدم. والمبدع والبديع وبادع أسماء أفعال.

دعوني الآن من التعريفات الأكاديمية الجافة والقاموسية المتسلطة. المبدع هو المتمرد على المألوف من اللغة والوقائع والأشياء، المتمرد على العالم والساعي إلى عالم غير مألوف، المبدع هو بطل التجاوز، ولأن المبدع هو هكذا فهو بالضرورة مع الربيع منطقياً، وإذا كان مبدع ما، واقعياً، ضد الربيع العربي ففي الأمر هوية عميقة ومصلحة زائفة تمنعانه من أن يكون نصير ذاته، لأن المبدع هو في حد ذاته ربيع. وأنى التفتّ وجدتَ الأكثرية من المبدعين العرب منخرطين في الربيع العربي بهذا الشكل أو ذلك وليس في الأمر غرابة. فالمبدع بالأصل مولود من رحم الحرية من جهة وضد العتيق من جهة أخرى. إنه ضد كل من يسلب

الأنا فضاءه. وكل من يصادر الممكن. فأنى لمن يرى الحياة ممكنات أن يرضى بسلطة تجمد الواقع والتاريخ وتعلن بكل صلافة وغباء أنها أحسن العوالم الممكنة، ولا ممكن على هذه الأرض سواها. بل إن المبدع يصل في شطحاته إلى مرحلة الدفاع عن المستحيل، ولهذا فهو ضد الرضا عن أي عالم كان.

المبدع الحق هو وجدان حق مفعم بالحب والألم والطفولة، بالفرح والحزن. والوجدان لا ينفصل. فمن يهز وجدانه تدحرج رأس المعري الحجري في معرة النعمان ولا يهز وجدانه الأطفال الذين فقدوا الحياة، والأرواح التي تزهق بالبراميل المتفجرة، ليس له وجدان. المبدع لا يختفي وراء عقل بارد خائف على حداثة زائفة لسلطة تنتمي إلى القرون الوسطى وما قبل ذلك في رد فعلها على البشر، بل المدافع عن حداثة حقيقية يكون فيها الإنسان مركز العالم ضد كل أشكال القهر. بل إن بعض المبدعين الخائفين من المستقبل هم كذَبَة. لأن الخائف من المستقبل هو مدافع عن واقع قتل المستقبل وأبناء المستقبل. الخائف من المستقبل هو منحاز إلى الماضي الذي يمثله الواقع.

الربيع العربي عملية تاريخية طويلة، وليس فصلاً من فصول الحياة بل نريده فصل الحياة الوحيد. ولهذا فهو ليس مجرد إزاحة سلطة عن سدة الحكم كما يظن أصوليو الغنيمة ومثقفو الغنيمة الذين أظهروا أحقادهم على كل المدافعين عن الحداثة والتحديث والتنوير متوعدين بالانتقام ممن أداروا ظهرهم للأب. ولهذا ليس غريباً أن تجد مثقفي الأب المدشدش والمعمم والملتحي خلواً من أيه لمعة إبداعية. فمن ذا الذي يستطيع أن يبدع دون أن يقتل أباه أصلاً. المبدع العربي اليوم يعيش ذاته التي تعينت ولهذا تراه غارقاً بالهم المعبر عنه بالقصيدة والمسرحية والفكر والمقالة واللوحة. فيما ثقافة السلطان وثقافة الغنيمة خلو من المبدعين. وآية ذلك أن هناك ترابطاً بين الإبداع والحرية، بين المبدع والنجاح.

دفاع عن الأنا ضد القطيع

تنطوي الثقافة العربية على مَثلَب خطير جداً ألا وهو العداء للأنا، ولهذا يعوذ العرب من الضمير المنفصل أنا و تقول العامة: "أعوذ بالله من كلمة أنا" ويتعوذون من الأنا كما يتعوذون من الشيطان.

ودعوني أقول لمن يرى الأنا شراً مستطيراً إن الشر في بلادنا كامن في غياب الأنا واستبداد النحن والهُم.

إن الشر كل الشر يكمن في غياب الأنا التي تفكر والتي تختار والتي تحرر والتي تحلم والتي تتمرد. ولهذا فإن والد أعداء الأنا هو الطاغية المستبد الذي يسعى دائماً لجعل الناس قطيعاً خوفاً من الأنا الحر. والقطيعية هي صورة موت الأنا.

لولا هذه النزعة القطيعية البدائية لما رأيت جماعة تتعصب للطاغية وتمارس من أجل سلطته أسوأ صور القتل والإبادة.

ولولا هذه القطيعية لما كان هناك داعش تفسد على الشعب السوري كفاحه من أجل الحرية والتحرر.

هذه القطيعية هي التي حملت حزب الله على ارتكاب المجازر في سوريا، لولا هذه القطيعية لما كان هناك وعي طائفي متعصب.

ويجب ألّا ننسى أن القطيعية هي وعي قطيعي، والوعي القطيعي لا يفكر أبداً.

ما هو الوعي القطيعي:

إن الوعي الذي يصدّق الأوهام والخرافات دون أي إعمال للعقل والتفكر، وعي يصدق دون تأمل ونظر. وأسوأ أنواع الوعي القطيعي ذلك النوع الذي يتحول إلى أيديولوجيا تدفع الناس للموت من أجلها؟

تأمّل معي تلك الشعارات الأيديولوجية للمليشيات الطائفية، ستجد أنها شعارات لا تنطلي على من لديه حد أدنى من التفكير.
تأمّل معي أسماء الحركات القطيعية: حزب الله، أنصار الله، كتائب الحق، النصرة، دولة الخلافة. تأمل الشعارات التي يرفعها الدكتاتور ولا علاقة لها بالواقع أبداً: الممانعة، التحرير، السيادة. تأمّل كل هذا، وانظر إلى سلوك القطعان المنتمية إليه؟

ولهذا فإن الدفاع عن الأنا دفاع عن الإنسان الذي يفكر. لولا الأنا لما احتفل الوجود بالثائر الذي أعلن أنه يريد. لو كان هناك انتصار للأنا لكان هناك انتصار للحرية والأحرار. لو كان هناك انتصار للأنا لما كان هناك قطيع يمشي وراء المستبد. لما كان هناك تحطيم لقيمة الإنسان. وإذا كان بعض الناس يكرهون الأنا لاعتقادهم أنها والأنانية شيء واحد فهم مخطئون. لأن حضور الأنا هو بالضرورة حضور الآخر بوصفه أنا. واعلموا أن انتصار الحرية مستحيل دون انتصار الأنا. لأنك حين تعلن "أنا" تعلن في الوقت نفسه حضور الذات الممتلئة بالوجود. الأنا هو السيد، والقطيع أغنام المراعي.

قول في الاستقامة المنطقية

نعرّف الإنسان العاقل بأنه إنسان منطقي، والمنطقي هو الذي حين يفكر عقلياً فإنه يلتزم بقواعد الواقع التي صارت مبادئ العقل نفسه.

ومن أهم مبادئ المنطق التي صارت مبدأً عقلياً عدم الوقوع في التناقض في الوقت نفسه ومن الجهة نفسها. فإذا قال أحد ما إني أكره الدكتاتور وأحب ذاك الدكتاتور فهو متناقض في الوقت نفسه ومن الجهة نفسها. ماذا يعني ألّا تتناقض في الوقت نفسه وفي الجهة نفسها؟

فإذا قلت أنا أحب النار حين تصبح أداة للمتعة والطبخ والنور، وأكره النار إذا تحولت إلى أداة تعذيب في سجون الطاغية، فأنت لا تتناقض.

لكنك إذا أعلنت كرهك لكل الدكتاتوريين وحبك لدكتاتور فأنت متناقض منطقياً بالضرورة.

إذا كان هناك مثقف ما يعلن أنه علماني وكتب شعراً يدافع فيه عن حرية الإنسان ومؤيداً في الوقت نفسه للدولة الدينية اللاهوتية كالدولة الإيرانية، فهو غير مستقيم منطقياً. لأن مبدأ الثالث المرفوع في المنطق يقول لك إما وإما. وإذا رفعت جماعة ما شعار أنها ضد الاحتلال ولكنها مع احتلال وطنها، فهذه جماعة تفتقد إلى الاستقامة المنطقية.

إن أسوأ مظاهر خرق الاستقامة العقلية التي تعجّ بها بعض خطابات الوسخ التاريخي تلك الخطابات المتعلقة بالميليشيات الأصولية.

فكل من يقيم فارقاً بين أصولية سنّية عنفية أو سلمية وأصولية شيعية عنفية أو سلمية ومنحاز طائفياً لا تتوافر فيه الاستقامة العقلية. فأحمد الأسير وحسن نصرالله شيء واحد من حيث الماهية.

كل من يرفض دولة الخلافة يجب أن يرفض بالضرورة دولة ولاية الفقيه. كل من يقبل بدولة ولاية الفقيه يجب أن يقبل بدولة الخلافة. أما أن تقبل واحدة وتذم أخرى، فأنت تخرق المنطق، فضلاً عن أنك متخلف عقلياً. ولهذا فمن يقبل بعمامة خامنئي والسيستاني ليس من حقه أن يرفض عمامة البغدادي والجولاني.

لكن الاستقامة المنطقية الآن هي الدفاع عن الدولة الحديثة دولة الحرية. دولة الحق الفردي والجماعي. دولة الشعور بالأمن الفردي الجماعي. دولة تلبية الحاجات والحفاظ على الكرامة الإنسانية. دولة الدستور الذي يؤكد هذا كله. والسلطة المنتخبة الساهرة على تنفيذ ذلك. وهذا دفاع عن منطق التاريخ الذي لا يتعارض مع المنطق العقلي.

فهزيمة الميليشيات الهمجية ذات المرجعية الإيرانية المتطفلة على المسار التاريخي العربي الراهن، في اليمن والعراق وسوريا ولبنان وهزيمة أي ميليشيات أخرى متطفلة، تساوي في أهميته هزيمة الدكتاتوريات. وهذا أمر في غاية الأهمية لمستقبلنا المنشود.

بقي أن أشير إلى مسألة تغيب عن كثير من الناس ألا وهي العلاقة التي تقوم بين المنطقي والأخلاقي، فالمنطقي الذي يفكر هو في الغالب شخص أخلاقي، ولهذا ترى جميع الطغام خالين من القدرة على التفكير المنطقي. ألا بئس المثقف الطغامة.

الأشباه بين العدوانية والعجز عن الحضور

ليس هناك من ذنب شبيه لآخر في الخلقة، لأن هذا من شأن الوراثة البيولوجية، بل وقد يكون ذلك مدعاة للفرح.

غير أن الشبيه الذي هو من قبيل خيال الأصيل أمر يدعو إلى النظر إذا ما كان همّ الشبيه الدائم أن يتحول إلى أصيل، دون أن ينطوي على إمكانية كهذه. غير أن أكثر الصور فجاجة للشبيه، هو صورة المثقف الشبيه. سواء كان مثقفاً شفاهياً أو كان كتابياً.

والمثقف الشبيه هو الذي أوتي حظاً من موهبة محدودة، فلا هي قادرة أن تعلو به إلى درجة الإبداع، ولا هي تدرجه في عداد العوام. ولهذا يسعى جاهداً، بكل ما أوتي من محدودية الموهبة أن يحمل الآخرين على الاعتراف بأصالته، وينال تصفيق العوام.

وتتعين محدودية موهبته بعقل متوسط، ولأنه ذو عقل متوسط فإنه وسط بين العقل العام والعقل العبقري. وليس للتاريخ مهرب من وجود متوسطي العقول. ولهم على أية حال وظيفتان إحداهما ايجابية وهي ضرورتهم للحياة العملية. والثانية سلبية وهي عقدتهم العدوانية الناتجة عن شعورهم بالدونية. ولهذا فهم دائماً المزبلة التي يستورد منها المستبد كلاب حراسته، وبخاصة تلك التي تقوم بالنباح على الأنوات المبدعة.

متوسط العقل هذا الذي يعيش عمره في حال الشبيه، يعيش على نحو دائم شعور عدم الرضا عن نفسه، يعيش عقدة الاعتراف من الأعلى. فهو قادر على الحصول على الاعتراف من الأدنى.

الشبيه هذا لا يجد أمامه للخروج من تناقض قدراته الذهنية المتواضعة مع طموحاته غير المحدودة إلا بالتطرف السلبي تجاه أعداء يصنعهم دون علم من الأعداء واكتراثهم، وإشهار لسان وظيفته اللعلعة والحسد والاعتداء طمعاً، وقلم لا يجيد إلا القول الخالي من المعنى، طمعاً في حضور وهمي.
الشبيه هذا – متوسط العقل- كأي شبيه آخر يعيش ما سماه هيدجر الوجود المبتذل، والوجود المبتذل، هو عالم النميمة واللغو والشتيمة. ومن الطبيعي والحال هذه أن يكون الأصيل هو العدو الأشد عند الشبيه.

الشبيه متخم بالعدوانية ولهذا هو لا يكتب وإنما يتقيأ عدوانية على الورق.
الشبيه هذا وأمثاله لا يجدون أفضل من اللغو وسيلة للحضور الزائف بل إنهم لا يجيدون غيره أصلاً.
هذا المتطرف السلبي: الماركسي جداً القومي جداً الفاشي جداً ليس متطرفاً بحق وبصدق، فللتطرف وظيفة ايجابية عندما يكون موقفاً صادقاً من الحياة، إن التطرف بالنسبة إليه هو وسيلة للحضور للظهور ولا يمارسه إلا ضد الحضور.

الشبيه هذا – المصاب بعقدة الخصاء- هلع من الصفات التي يخلعها أهل المعرفة على المبدع، ويشتاط غضباً من كينونته لأنه لا يستطيع أن يكونها.
الشبيه هذا وأشباه الشبيه يحولون إحباطهم الفردي وعجزهم الوجودي إلى نزعة عدوانية.

إنه وقد صار عاجزاً عن الحضور راح يطلق النار على الشخص المبدع وليس على إبداعه، فهو ليس بمقدوره أن ينقد الأفكار والآراء لأن نقداً كهذا يحتاج إلى تفكير لكن الشبيه لا يفكر.

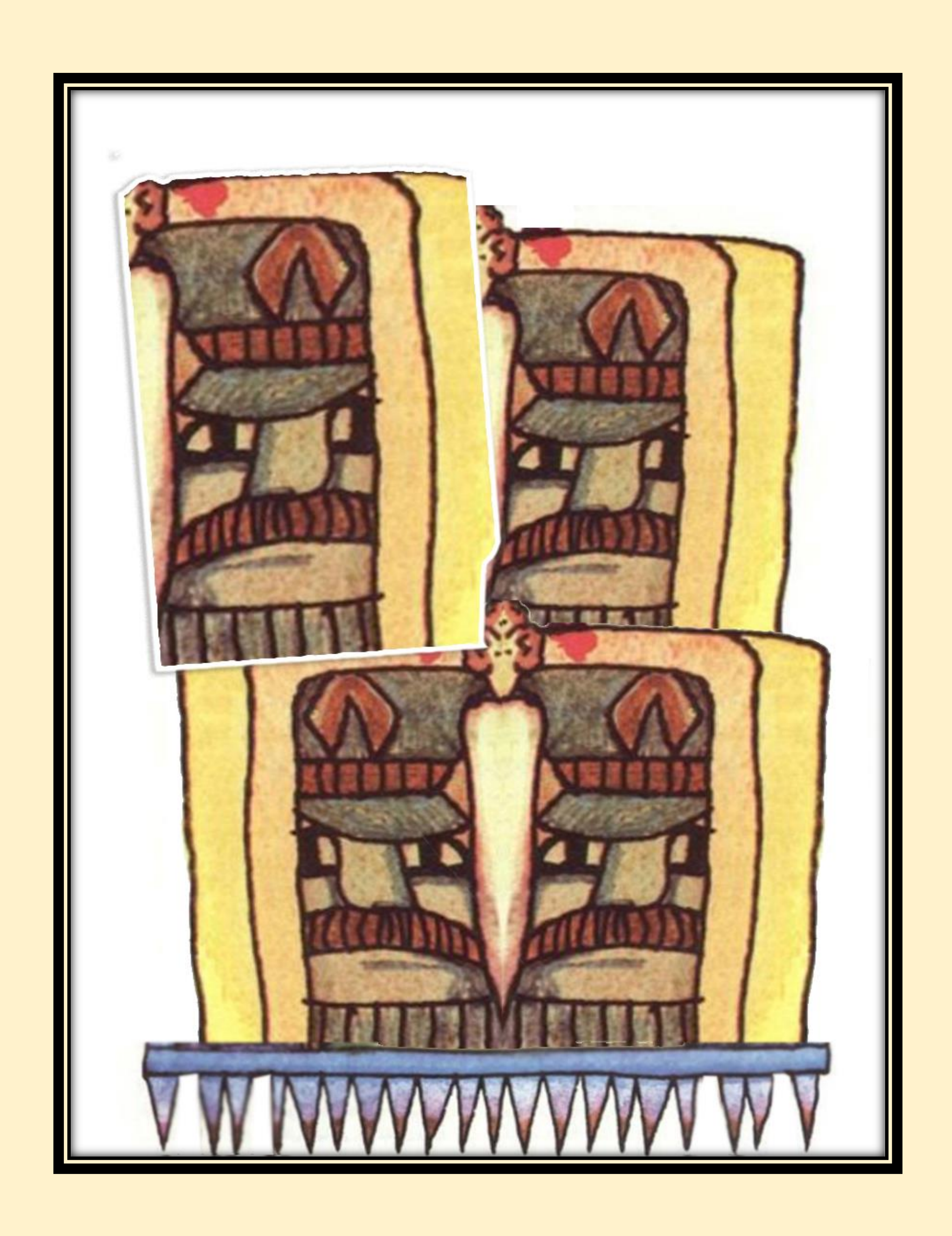
الشبيه هذا يعتقد أنه إذا عبر عن انتمائه للثورة أو ذيّل اسمه بحرف الدال، أو إذا تسلق على أكتاف الآخرين نال شهادة حسن الحضور. ومع ذلك كان يمكن أن نغفر للشبيه عدوانه – القيء لو ظل في حقل الجعجعة والقيء لكن الشبيه تحول في عدوانيته إلى أكثر أشكال الانحطاط الوجودي قذارة. حيث لفق كلاماً كي يوقع الإيذاء بالنبيل.

ليس بالضرورة أن يكون الشبيه منحطّاً إلى هذا الحد، لكن الأمر عند هذا الشبيه فاق التصور شعوراً بالخصاء والدونية، جهل معرفي، تطرف وظيفي، حس جمالي متدنّ، انحدار أخلاقي، وانتماء زائف.

لقد ترددت كثيراً في الكتابة عن ظاهرة الأشباه – متوسطي العقول في أنموذجها السوري بخاصة الذي أشرت إليه. فأنا أحتاج إلى جهد كبير كي أصل حد التواضع وألوّث قلمي بتناول شبيه بعينه.

لكني وجدت بعد تأمل: أنه من الحكمة العملية أن أجيب القراء عن سؤال وجيه: ما الذي يحمل الشبيه هذا على النيل من ذوي الحضور المركزي في حياتنا؟

لو كانت القهقهة تكتب – وبخاصة قهقهتي- لما احتجنا للكتابة، ولوفرنا وقتنا لما هو أثمن. ولكن ليس في اليد حيلة.



أوهام العجزة

ما زال الانتماء القومي في العالم أداة تعريف للشخص، كما هو حال الانتماء للدولة، فالآخر الذي لا ينتمي إلى قوميتك وجنسيتك يُعرّفك بانتمائك.

والعربي حتى الآن لا يجد تناقضاً بين انتمائه العربي وانتمائه للدولة التي يعيش فيها مواطناً. بل ولا يشعر بهذا الاختلاف.

حين كنا ندرس في جامعات الغرب والشرق، كان يطلق علينا الطلبة العرب، وكانت العلاقات تقوم بيننا بوصفنا عرباً.

ثم نتعرف على بعضنا بانتماءاتنا لهذه الدولة أو تلك، كان ذلك في سبعينات القرن الماضي، ولم نكن أبداً نكترث بانتماءاتنا الدينية والطائفية.

هذه المسألة التي هي للبداهة أقرب يحولها بعض المثقفين العرب إلى مشكلة بنفي صفة العربي عن سكان بلاد الشام والعراق ومصر وبعض بلدان المغرب. ودافعهم إلى ذلك أمر أيديولوجي:

الأول بأن الأصول العرقية الآشورية والفينيقية والآرامية والفرعونية هي الحقيقة، وأن العرب قوم لاحقون جاؤوا مع الفتح قبل ١٥٠٠ عام (ولهذا فهم محتلون). فضلاً عن أن تقدم شعوب هذه البلدان رهن بنكران هويتهم الراهنة والعودة إلى هويتهم المقابل عربي.

إن هذا الوعي الزائف مردّه إلى أوهام تبحث عن سند قديم لتأكيد نزعة عدمية تجاه العرب.

لن أدخل في نقاش حول هذه المسألة الزائفة. والأمر لا يستحق سوى بعض الأسئلة:

هب أن السوريين واللبنانيين أعلنوا بقرار يصدر عن أصحاب الحكم أنهم فينيقيون، وأن الجنسية في لبنان وسورية المكتوبة على جوازات السفر والهويات (فينيقية) أو آرامية، فهل سيخرجون من أحوالهم التي تبعث على الشفقة؟ هل إذا أعلنوا أنهم ليسوا عرباً في وثائقهم يحققون السلم والأمن ويتخلصون من الدكتاتورية والطائفية؟

وهب أن جميع المصريين استفتوا على مشروع بأن مصر هي فرعونية ولا علاقة لها بالعرب، وأطلقوا اسم جمهورية مصر الفرعونية على بلدهم بدلاً من جمهورية مصر العربية، فماذا يعني هذا للتقدم وللتنمية؟ وهل ستحل الجنسية الجديدة الفرعونية مشكلات الاقتصاد والسياسة؟.

يبدو أن أبطال المسخرة السعداء في أسِرّتِهم القديمة ليس باستطاعتهم المشي على الأرض، الأرض التي تعلن دائماً أن الحياة هنا والآن وغداً.

فبدل البحث في الواقع عن الإمكانيات التي علينا إنجازها وتحقيقها بما يحقق سعادة المجتمعات، نعود إلى طرح الزائف من المشكلات.

نعم الحياة هي هنا الآن وغداً ولا تسكن في كهوف الماضي، وهذا الوهم المسخرة ليس سوى تعبير عن العجز عن فهم الواقع، أو الهروب من المشكلات الحقيقية.

هذه الأوهام تشبه الأوهام الطائفية، التي تدمر الحياة والعلاقات المعشرية، والعيش المشترك.

فالتفكير في المستقبل ينطلق دائماً من بناء الحاضر وليس من اجترار الماضي، فبيروت المركز المالي والسياحي لم يدمرها الانتماء العربي، بل دمرها النزاع الطائفي والتبعية، والحروب الداخلية الخلبية، واغتيال النخبة الفاعلة. وقس على ذلك.

الحل لمشكلات المنطقة لا يكون بهذا الوعي المتخلف، بل في قيام الدولة التي تحافظ على الحق والحرية والمساواة والإنصاف، والتعبير عن ثقافة الجميع من القوميات والجماعات، والحفاظ على ثقافتها. فطرح مشكلة الانتماء إلى أقوام بادت وامتزجت ببعضها ليس سوى التعبير عن أيديولوجيا العجز المطلق.

الدولة بالمعنى الحديث والمعاصر للكلمة، المواطنة بوصفها الحق وإنسان الحق.

نعم

إننا نشهد اليوم في بعض أوطان العرب ظهور أيديولوجيا العجز، وهي أخطر أشكال الأيديولوجيات.

لماذا؟

لأن أيديولوجيات العجز تولد لدى معتنقيها طاقة على الموت المجاني الضائع، والمتأمل في أيديولوجيا العجز لدى المليشيات يدرك خطورتها على الحياة.

ولعمري إن صحوة العقل تحتاج إلى صحوة ضمير، إذ لا انفصال بين العقل والضمير، وأقصد الضمير الأخلاقي الذي يجب أن يحملنا دائماً على التفكير العقلي بشؤون الحياة.

فالجهل المقدس الذي يتعين اليوم بأيديولوجيات العجز، لا يواجَه إلا بعقل التجاوز البنّاء، بعقل التفكير بالشروط التي تجعل الإنسان فرحاً بانتمائه.

فأيديولوجيا العجز هي أيديولوجيا الموت.

المناقشات العقيمة

حين تتبادل الرأي مع الآخر فيكون بينكما نقاش، كما حين تناقش نفسك فإنك تقلب الآراء في عقلك.

والنقاش بهذا المعنى يفضي إلى رأي لم يعد خاضعاً للنقاش، ولهذا نقول: وبعد نقاش مطول وصل المناقشون إلى نتيجة مفادها كذا وكذا.

ولكي يكون النقاش ممكناً يجب أن يتوافر فيه شرط أساسي ألا وهو الاعتراف المتبادل بين المتناقشين، والاستعداد المسبق بالقبول بما يتوافق مع المنطق العقلي والواقع العقلي.

ولهذا فإن المعاهدات التي تقوم بين الدول غير ممكنة بدون هذين الشرطين، حتى لو كان هناك اختلاف في القوة.

والدساتير في الدول التي تحترم شعوبها إنما تنتج عن اتفاق على المبادئ المرتبطة بالحق. ولكن هناك نمطاً من المناقشات نسميها المناقشات العقيمة، وهي التي تجري غالباً في عالم السياسة والصراعات. وتعود المناقشات العقيمة إلى ثلاثة أسباب، منها سببان مقصودان، وسبب غير مقصود.

أما السببان المقصودان فأولهما إذا دخل الطرفان إلى حلقة النقاش لأسباب محمولين عليها، وقررا سلفاً ألا يصلا إلى اتفاق ورأي مشترك. وهذا يعود إلى أن كلاً منهما ينتظر وقائع جديدة يعتقد أنهما قادران على تحقيقها. وهذا ما يطلق عليه الوعي العام (حوار الطرشان).

وحوار الطرشان هذا هو ألا يكلف الطرفان نفسيهما لسماع الآخر، لأن كل طرف قرر ألا يقود الحوار إلى أية نتيجة.

أما **السبب الثاني** للمناقشات العقيمة فيقوم على أن أحد الطرفين قرر أن يفشل النقاش، ولا يسعى لأي رأي مشترك مع الطرف الآخر.

وهذه حال المناقشات التي تجري بين ممثلي الجماعة الحاكمة في دمشق، وممثلي القوى الشعبية المعارضة لها. فممثلو الجماعة الحاكمة لديهم توجيه واضح وصريح بألا يتوصلوا إلى أي اتفاق مع الوفد الشعبي السوري تأسيساً على قرار من هذه الجماعة مفاده: إن ما لم تحصل عليه المعارضة بالقوة لن تحصل عليه بالسلم وهي مهزومة. وهذا يذكرنا بموقف شامير بعد مؤتمر مدريد، حيث حُمل على إجراء حوار مع وفد فلسطيني آنذاك حين قال حسناً سنستمر في النقاش لمئة عام.

فقد تضمن قرار مجلس الأمن عام ٢٠١٥ الإطار القانوني لإنشاء اللجنة الدستورية، ومضت سنوات ثلاث حتى تم التوصل إلى اتفاق على هذه اللجنة بضغط من روسيا بعد الاختلاف على تشكيل هذه اللجنة.

اجتمعت اللجنة لأول مرة في عام ٢٠١٩، ثم توالت الاجتماعات وكان آخرها اجتماع اللجنة في الشهر العاشر من العام ٢٠٢١، وانتهى النقاش بالفشل. فوفد الجماعة الحاكمة لديه التوجيه الأساس: لا اتفاق مع وفد الائتلاف. ولهذا أطلقنا على هذه النقاشات الدستورية صفة "اللغوصة" السياسية.

أما **السبب الثالث** للمناقشات العقيمة فهو الذي يعود إلى اختلاف مستويات المعرفة، وفي هذه الحال لا تعود أسباب المناقشات العقيمة إلى السببين السابقي الذكر، بل إلى اختلاف في المعرفة، وهذا العقم يميز المناقشة بين الجهلة والعلماء، وغير مرتبط بالسياسة في الغالب. ولهذا فإن أحد أشكال العبث الكوميدية حوار يقوم بين عقل خالٍ من المفاهيم النظرية الضرورية للفهم، من جهة، وعقل يستخدم عدة مفهومية لا يمكن بدونها فض الظاهرة، من جهة ثانية، فمن العبث أن يدور نقاش بين عقل لا يعترف بسلطة المنطق وعقل مسلح بالمنطق.

الخلاص الزائف

تنتمي فكرة الخلاص الوطني إلى حقل الكفاح الشعبي من أجل الحرية والكرامة والاستقلال الوطني.

فانظروا ماذا حدث حين لم يفكر الوعي المتخلف بنتائج خلاصه المعتمد على توسل الخلاص من قوة خارجية.

فقد ظن الوسخ التاريخي الحاكم في العراق أن خلاصه سيتم عن طريق الغزو الأمريكي، فانظروا إلى هذا الخلاص كيف تعين في الخراب الذي هو أسوأ خراب عرفه تاريخ بلاد الرافدين، بل إن الخراب الذي نتج عن الغزو التتري لا يساوي جزءاً من الخراب التاريخي الذي يعيشه العراق الآن، وليس هذا فحسب، فقد ظنت المليشيات الشيعية أن أمها الإيرانية ضامنة لبقائها، ولا يعرفون أن أمها هذه ليست سوى أداة قتل للأم الحقيقية -العراق.

وظنت الجماعة الحاكمة في الشام أن قوة الروس والإيرانيين الهمجية وميليشيات الوسخ التاريخي من كل الأنواع بما فيها مليشيات أحمد جبريل ستجلب لهم النصر المؤزر، انظروا إلى هذا النصر من التدمير والجوع والمرض والهجرة، الشام التي كانت ملجأ الغرباء تحولت إلى مقبرة.

وتظن مليشيات الوسخ التاريخي المؤَّيدة من تركيا أن الأتراك طريقهم للتحرر، وهم لا يعلمون أن الأهداف القومية التركية هي التي تحرك السياسة التركية وليس شيئاً آخر.

وتظن مليشيات الوسخ التاريخي الكردية في الجزيرة السورية أن أمريكا ستمنحهم استقلالاً بالمناطق التي يسيطرون عليها، ولا يعلمون أنهم ليسوا سوى أدوات أمريكية مرحلية.

وقس على ذلك أوهام الحوثيين الذين يعتقدون أن الدعم الإيراني لهم سيساعدهم على حكم اليمن حكماً قروسطياً، وها هم يجرون اليمن إلى حرب ودمار ونهايتهم معروفة.

ويعتقد حزب الله أن القرابة المذهبية والأيديولوجية مع السلطة الهمجية الإيرانية كفيلة باستمرار سيطرتهم على الحكم اللبناني، وما هم في حقيقة الأمر إلا أداة لتنفيذ سياسات إيرانية قومية.

وإذا كنا قادرين على تفسير سلوك هذه المليشيات ورده إلى الولع بالسلطة التي هي نمط من السلطة الزائفة، لأنها لا تستند إلى قوة ذاتية طبيعية، بل إلى وظيفة خارجية، فإننا نحتاج إلى أدوات معرفية أعمق للإجابة عن السؤال:

ولكن كيف يمكن لمن أدركته حرفة الشعر والأدب عموماً والفلسفة والفن التشكيلي وكل صنوف الإبداع أن يكون مؤيداً لمليشيات الوسخ التاريخي الإسلاموية والشيعية والقومية الكردية أو تكون فاعلة مع جماعات الوسخ التاريخي الحاكم في سوريا والعراق ولبنان واليمن؟

فالذي أدركته هذه الحرف النبيلة يكون على وعي نبيل بالعالم، ضد العنف والقتل والعبودية والجهل المقدس. فالجماعات غالباً ما يقودها وعيها الجمعي وتعصبها الهوياتي إلى الاندراج في الحركات العنفية، فيما المشتغلون في حقل الإبداع الروحي فإنهم يتخذون مواقفهم بوصفهم أفراداً مستقلين.

هذا يعني أن هناك عاملين أساسيين يفسران الانحياز إلى الانحطاط التاريخي: الوعي المتخلف بالهوية والانتماء الهوياتي التعصبي، من جهة، والمصلحة الفردية الأنانية التي يحققها الدفاع عن هذا الانحطاط.

فموت الحس الوطني، الذي هو حب الوطن، لدى المشتغلين بالثقافة يجعلهم قابلين لكل ما يحقق نزعاتهم الضيقة، وبخاصة القبول بالخلاص المتكئ على قوة خارجية، دون أن يدركوا أن أية قوة خارجية لا تطرح على نفسها إلا سؤال مصالحها وما هي الوظيفة التي تقوم بها الجماعات المرتبطة بها.

فروسيا وإيران وتركيا وأمريكا ألغت أي شكل من أشكال السيادة الممكنة لسكان البلاد التي يحتلونها بهذا الشكل أو ذاك؟

ولأن الطغاة ليسوا سوى كائنات وظيفية، فإنهم يتركون الأوطان في حال الدمار الظاهر، بعد أن كان الدمار مخفياً عن طريق ستره بالقوة العسكرية والمخابراتية والإعلامية والأيديولوجية.

ولهذا فإن رسم صورة المستقبل للأوطان المدمرة مستحيل دون إجابة المعارضة -عقل المستقبل الوطني عن سؤال: كيف يكون الكفاح الوطني مستقلاً ومعبراً عن الهوية الوطنية؟

فالتجربة التاريخية لعرب الشام والعراق في الحرب العالمية الأولى كافية لإدراك كيف جعل الحلفاء بريطانيا وفرنسا بلادنا شذر مذر. وما زلنا نحصد نتائج العقل الساذج الذي لم يستطع أن يفهم الأغنية التي غناها الغرب على ليلاه.

في الوعي الثوري

ماذا يعني أن يكون للإنسان وعي ثوري؟

نحن الآن أمام مفهومين مترابطين الوعي والثورة. فالوعي هو جملة من الآراء والمعتقدات وذهنية التفكير التي تتعين في السلوك والموقف من الواقع ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وذو ارتباط بالمصلحة والانتماء بالمعنين الخاص والعام. والثورة حركة في السيرورة الاجتماعية تغير واقعاً تغيراً كيفياً نحو واقع جديد يقيم قطيعة مع الواقع القديم ومتجاوزاً للواقع القديم.

الوعي الثوري إذا هو وحدة التعريفين السابقين للوعي والثورة. فصفة الثوري هي صفة للوعي. فإذا كان الوعي مقتنعاً بالسيرورة التاريخية وتجاوز الواقع الذي لم يعد مستجيباً لآمال الناس وحياتهم وسعادتهم ومخالفاً لحركة التاريخ، ويعتقد أن الإرادة قادرة على تغيير العالم فإنه إذ ذاك يكون وعياً ثورياً.

وبالمقابل فإن الوعي الذي يدافع عن واقع لم يعد قابلاً للحياة ومناقضاً لإرادات الناس، ويسعى للحفاظ عليه بأية وسيلة من الوسائل فإنه وعي متكلس دفاعاً عن المصالح التي يوفرها الواقع لأصحاب هذا الوعي يتميز بالحمق العنفي. أما الوعي الذي يسعى عبر العنف أو السلم لاستعادة ماضٍ بوصفه بديلاً للواقع، فهو وعي نكوصي مدمر.

في إطار هذا التحديد للوعي يجب النظر إلى أشكال الوعي في علاقتها بالثورة السورية.

ونحن إذ وقفنا حديثنا على الوعي الثوري، فهذا لأننا نريد أن نرى التطابق هنا بين الوعي الثوري والممارسة العملية. ذلك أن أي تناقض بين الوعي الثوري والممارسة الثورية قد يؤدي، بل يؤدي بالضرورة إلى عثرات كبيرة على طريق تحقيق أهداف الوعي الثوري، إن لم يجهض الولادة الثورية. فالوعي الثوري هو النظيف من الوعي المتكلس والوعي النكوصي على حد سواء. فلا يمكن الجمع بين الوعي الثوري وأشكال الوعي المتكلسة والنكوصية. وهذا يعني: أن معيار الوعي الثوري السوري ليس هو الوعي المعادي للنظام القائم في سوريا فقط، بل هو شرط ضروري غير كافٍ.

فالمعادون للنظام الحاكم قد يحتفظون برغبتهم ببقاء بنية النظام مع تغير في صورته، وهناك من يعادون الجماعة الحاكمة ويعملون على إعادة التاريخ إلى الوراء، ويحتفظون بممارسة عملية لا تختلف عن ممارسة النظام نفسه.

ومن مثالب الوعي الثوري السوري عدم الانسجام بين الوعي والممارسة، حيث يعتقد نفر من الفاعلين على مستوى النظر أو العمل بأنهم أصحاب ملكية ثورية. ويحولون الثورة إلى سلطة قبل أن تنجز مشروعها في التغيير الكيفي. بل إن هناك نمطاً من المنتمين للوعي الثوري يعتقدون أنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة، ويذمون أي اختلاف معهم في زاوية الرؤية.

ولعمري إن تحرير الوعي الثوري من المثالب السابقة الذكر شرط ضروري لمواصلة الممارسة الثورية، وإلا فإن العثرات إذا ما تراكمت أدت إلى الكارثة.

في الثورة والإحباط

تعاني أكثر النفوس المتمردة في الوطن العربي التي انتفضت لتجاوز الواقع الزفتي - وبخاصة في سوريا - تعاني هذه الأيام من توتر مُحبِط مرده إلى الهوة التي تفصل بينهم وبين العالم كما يجب أن يكون، بينهم وبين العالم الذي ناضلوا من أجله ورسموه في ذهنهم وهم يثورون على الواقع.

توتر يقود بعضهم إلى التأفف الشديد من سلبيات الحالة الثورية، تأفف يصل حد طرح السؤال عن جدوى ما أقدموا عليه أو التشاؤم من الآتي.
لا شك أن الأمور لم تجر بما يشتهون، لكن نزقاً كهذا يجب أن لا ينسينا أموراً مهمة وكثيرة:

أولاً: إن جزءاً من القوى التي ساهمت في تحطيم القديم هي جزء من إرادة التاريخ اللاواعية، ولم تكن ولن تكون في حال من الأحوال جزءاً من العالم كما يجب أن يكون في نهاية الأمر. بل ستتحول سريعاً الى قوى الثورة المضادة. وهذا جزء من الحال الطبيعي لسيرورة الثورات.
والعامل الذي يحدد مصير قوى الثورة المضادة هو الغاية الأساسية من قيام الثورة وبنية الواقع المنهار. فكل بديل لا يتجاوز على مستوى الحرية الواقع المنهار أو يكون أكثر سوءاً منه هو صورة للثورة المضادة المقبلة. وهذا عامل سلبي في مسار صناعة العامل الجديد.

ثانياً: إن الخبرة التاريخية للقوى الثورية فقيرة، وبخاصة في سوريا واليمن، إلى جانب ضعف الوعي التاريخي لدى جزء من الفاعلين السياسيين التاريخيين، وكل ذلك قد ولّد انطباعاً بعدم أهليتهم وبخاصة في إدارتهم للعلاقة مع العالم. ويجب أن نتذكر أن تكوّن النخب في النظم الدكتاتورية أمر عسير التحقق، سواء كانت النخب تنتمي للمعارضة أو للنظم الحاكمة.

فالدكتاتوريات غالباً ما تفضّل الضعفاء في كل شيء في أن يكونوا جزءاً أساسياً من أدواتها، وتحول عبر القمع والمنع دون نمو وتطور نخب المعارضة. هذا لا يعني انتقاصاً من نخبة المعارضة وإنما إشارة إلى الشرط التاريخي الذي تكونت فيه. وستتكفل الأيام عبر الممارسة بزيادة وعي التجربة، ومد النخبة بعقل قادر على اكتشاف الإمكانات القابلة للتحقق.

ثالثاً: إن أثر الفاعلين الخارجيين من الدول الفاعلة سواء كانت إقليمية أو عالمية قد عقّد المسار الطبيعي للثورات العربية في سوريا والعراق واليمن وليبيا، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أجندة كل دولة من الدول أدركنا بُعد المسافة بين ما كنا نراه وما يختزنه العالم من أثر سلبي على تحقيق ما نريد.

رابعاً: إن الذهنية الثورية في كل بلدان الربيع العربي ما زالت ملوثة بذهنية السلطة الحاكمة وهي في قلب الثورة. دون أن تدرك هذه الذهنية أن منطق الثورة مختلف عن منطق السلطة. لا يستطيع أحد أن يثور وهو منطوٍ على ذهنية السلطة والصراع على سلطة قيادة الحركة الثورية.

إن أخطر ما تواجهه أية حركة داخلية تغيرية أن يكون اختيار نخبها من قوى خارجية، لأن هذه النخب ستكون مرتبطة بما تريده الدول وليس بحركة التاريخ الداخلية للمجتمع. فأكثر المسخرات سوءاً التي تمت في نضال الشعب السوري هي مسخرة ولاءات بعض النخب لدول خارجية. فالأوروبيون والأمريكيون والأتراك يفتشون عن نخب موالية لهم في نهاية الأمر، فيما الذي يجب هو فرض اعتراف النخبة السورية الوطنية على دول الخارج. وإلا فلن يكون هناك فرق بين تبعيتهم وتبعية الجماعة الحاكمة في سوريا لإيران وروسيا.

خامساً: يجب أن نعلم أنه رغم كل شيء فإن الهدم للعالم القديم قد تم، وإعادة إنتاجه والإبقاء عليه ضرب من المستحيل التاريخي، وهذا هو الذي يحملنا على إعادة التفكير بالسبل التي تقودنا إلى النصر.


بسينهض القائد
ثقوا بهذا وانتظروا

الوطن والاعتراف

لا أقصد بالاعتراف هنا، إعلان الشخص لأمر أخفاه، سواء كان ذنباً أو حباً أو عاطفة أو موقفاً، بل أقصد الاعتراف بالإنسان بوصفه حقاً. حياة الشخص لا تستمر ولن تستمر بدون اعتراف.

ماذا يعني الاعتراف بالإنسان حقاً؟

يمكن لي أن أعرّف الإنسان، بكل بساطة، بأنه جملة من الحقوق المعترف له بها. وأي سلب حق من هذه الحقوق سلب للإنسان أو جانب ضروري من إنسانيته.

كيف لك أن تعيش في مجتمع ودولة دون الاعتراف بك، فإذا لم تحُز على هوية المواطنة بوصفها حقاً لن تكون مواطناً، أن تتحول من كائن مسلوب الحق يعني أنك تحولت إلى شيء، والعكس، في الاعتراف بحقوقك وحريتك تكون قد توافرت على ماهية المواطنة.

وكل سلطة لا تكون ثمرة عقد اجتماعي معترف به من قبل المجتمع ليست سلطة حق، بل معادية للحق. يعني كيف يمكن أن يكون هناك سلطة دون اعتراف مجتمعي عن طريق الاختيار!

الاستحسان الذي تلاقيه اعتراف. من حقك أن تسلب الاعتراف من صداقة الآخر، إن شئت، إذا تبين لك أن الصديق الآخر قد نال من حقك. فالصداقة

اعتراف متبادل من حقك أن تلغي علاقة الاعتراف هذه إذا اكتشفت أن صديقك صار متعصباً متوحشاً ومشروع قاتل.

جواز السفر لا قيمة له إذا لم يُعترف به وثيقة تمنحك الاعتراف بحقك في السفر والعودة من قبل دولتك أولاً.

ما الدكتاتورية؟

هي أن يحمل حاكمٌ الشعبَ على الاعتراف به عن طريق القوة والعنف. هذا يعني أنه يلغي ماهية الاعتراف - الحرية ولا يعترف بحق الآخر بالاعتراف. إنه في الحال هذه يدمر فكرة العقد الاجتماعي في أجلى مظاهره المعاصرة. كل من يحمل الآخر على الاعتراف به عبر القوة والعنف، هو مشروع قاتل وبالتالي قاتل بالضرورة عندما تواجه سلطة مطلب استعادة الحق بالعنف فاعلم أن دماء الحق قد سالت.

كل حركة قائمة على استعادة حق الشعب بالاعتراف، أي استعادة الإرادة وحق الوجود كما يجب أن يكون حركة مناقضة بالضرورة للسلطة الغاشمة، السلطة الغاشمة هي السلطة التي تقوم بلا اعتراف وعن طريق الغلبة بالقوة.

ولهذا كل السلط الغاشمة تحول القوة العسكرية والأمنية إلى أداة تدمير اجتماعي، وليس أداة تحقيق أمن وطني، كل سلطة لا تقوم على فكرة القانون المعبر عن حق جميع الناس بلا استثناء سلطة قاتلة بالضرورة.

الاعتراف منح الشرعية. لا شرعية بدون اعتراف. حكم يقوم على اعتراف ضئيل وعلى لا اعتراف واسع ليس نظاماً سياسياً. فلا سياسة دون اعتراف بالحق الكلي الشامل.

في السلم الاجتماعي وحده يجري الاعتراف وعدم الاعتراف دون إكراه، ولهذا فعدم الاعتراف ليس سلباً عنفياً، ليس قتلاً للمختلف، ليس اغتيالاً وخطفاً وسجناً. فعدم الاعتراف بأي سلطة تعني البحث عن سلطة بديلة تحوز على الاعتراف.

حتى الاعتراف الدبلوماسي بين الدول لا يتحقق بالإكراه والغلبة، لأنه يقوم على حق الدول في السيادة، الاعتراف بين الدول يقوم على المصالح المشتركة. وإذا ما تحولت القوة العسكرية أو الإرهابية إلى وسيلة في فرض الاعتراف بأصحابها فاعلم أن شروط التدمير للحياة قد بدأت في عملها.



في العاطفة الوطنية

هل هناك حياة نحياها خالية من العواطف؟

وهل لحضورها أثر إيجابي أم سلبي في سلوكنا، ليكن الجميع على علم أنه ما من حقل من حقول البشر إلا وللعواطف فيه مكان.

حتى في الرياضيات هناك من يحبها وهناك من يكرهها. والموقف العاطفي لا يرتد الى المصلحة أبداً وإنما الى موقف من الحياة، بل وإن الموقف من الحياة قد ينتصر على المصلحة.

حديثي لا ينصب على العواطف بعامة بل على العاطفة الوطنية. العاطفة الوطنية بالتعريف حب الوطن.

فالوطن هو اللغة والعادات والتقاليد والطبيعة والقرابة والصداقة وعادات الأفراح والأتراح وثقافة الطهو والموسيقى والأغنية والفلكلور والحرية والكرامة والانتماء والولاء له.

وكل من يظن أن مواطناً غادر وطنه عن طيب خاطر فهو واهم، لا أحد يترك وطنه إلا إذا أحس بالخطر داخله، من خطر الجوع إلى خطر السجن إلى خطر القتل إلى خطر القمع.

فحب الوطن لا يمكن أن يعيش في ظل الخوف على الحياة داخل الوطن.

ماذا تفعل الدكتاتورية في الوطن: تحمل الناس الذين يحسّون بالخطر على الفرار من الوطن.

فالدكتاتور يماهي بينه وبين الوطن من حيث إنه لا وطن إلا في ظل الدكتاتورية، ومن يحب الوطن فيجب أن يحب الدكتاتور.

لقد سادت جملة تقويمية عند الطغام حين يريدون ذم شخص أو مدحه، خائن الوطن، وخائن الوطن يعني خان الدكتاتور، ويحب الوطن يعني يحب الدكتاتور. فصار حب الوطن وكره الوطن مرادفين لحب الدكتاتور وكره الدكتاتور.

مع أن الحقيقة هي أن الوطني الحق أي الذي يحب الوطن هو الذي يكره الدكتاتور الذي يستبد بالوطن، ويتخذ موقفاً مؤيداً لأية حركة متجاوزة للدكتاتورية أياً كانت.

فمن يمتلك العواطف النبيلة وهو يرى أطفال الغوطة ملائكة أشلاء مكدسة بفعل أدوات القتل الهمجية ويسمع صرخات الأمهات الثكالى سيكون ودون أي تردد متعاطفاً مع الغوطة وأهلها. والعواطف النبيلة لا تتجزأ. إذ لا يمكن أن تكون في الآن نفسه ضد قتل الأطفال هنا ومع قتل الأطفال هناك.

وبالمقابل لا يمكن لكائن بشري قادر على الحزن والفرح والحب أن يكون إلى جانب النظام الدكتاتوري القاتل. ولأن العلاقة وطيدة بين العواطف والأخلاق فإنك واجد أن من لا عواطف نبيلة له منحطّ اخلاقياً ومن هو منحط اخلاقياً منحط عاطفياً.

ولهذا ليس مصادفة أن ترى أن جميع الدكتاتوريين منحطّون أخلاقياً وعاطفياً. والأكثر انحطاطاً منهم أولئك الذي يقدمون خطاب التمجيد لجرائمهم.

هناك من يعلنون عن حب الطاغية لأنهم يكرهون الأصولية العنفية، إنه لأمر يدعو للضحك.

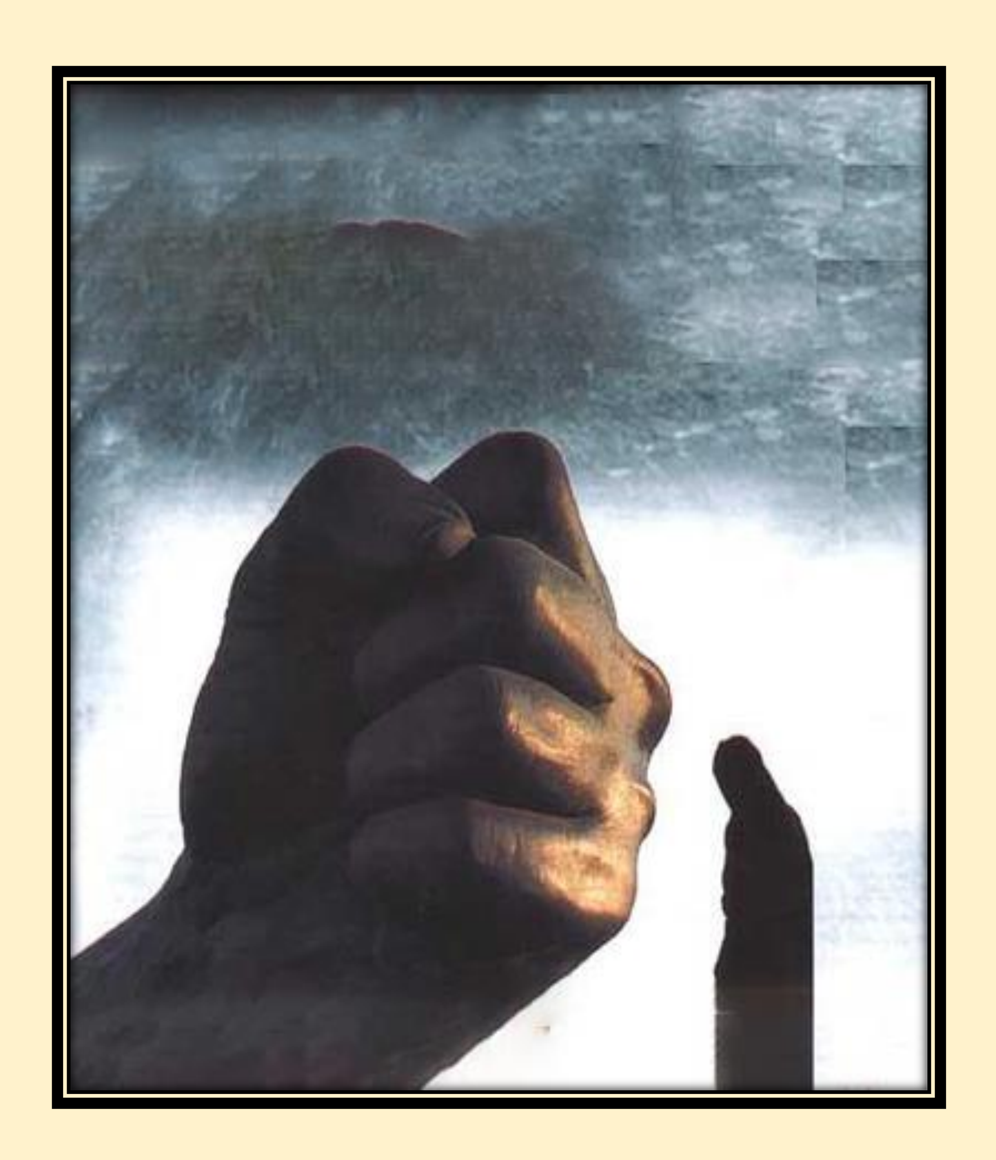
وبالمناسبة حب الطاغية ليس حباً أبداً، إنه تبعية مرتبطة بغرض وضيع، تماماً كما إن حب العنف الأصولي ليس سوى الانتماء إلى نوع آخر من الدكتاتورية.

ولذلك حين نصف جماعة بأنها ذات عواطف نبيلة أو شخصاً بأنه يصدر في موقفه من عاطفة نبيلة فإننا نربط مباشرة بين النبالة والعاطفة المرتبطة بالموقف من الحياة.

فالعاطفة كما أشرت، مرتبطة دائماً بموقف أخلاقي، ولهذا فالإنسان الأخلاقي لا يتعاطف مع الشر، فالتعاطف ذو صلة وطيدة بحب القيم الإيجابية.

ويجب أن نميّز بين العاطفة بوصفها شعوراً نبيلاً والانحياز، كل عاطفة نبيلة هي انحياز أخلاقي، ولكن ليس كل انحياز هو عاطفة. فمن لا يهزّه دمع الأم الثكلى حتى ولو كانت أم قاتل شخص بلا قلب وبلا ضمير أخلاقي. فالثائر قلب يفكر وعقل يشـــــعر، فيما المجرم بلا قلب وبلا عقـل.

الثائر هو الممتلئ بحب الوطن بوصفه وطن الحرية والكرامة الإنسانية وحب العيش المشترك.



في امتحان سؤال الأصل والفصل

حدثني صديقي صفوح برقاوي قائلاً: لقد دعاني أمين فرع دمشق عابدين، وقال لي معاتباً: نحن يا أستاذ صفوح أصدقاء منذ فترة طويلة، وكل هذه الفترة أتعامل معك بوصفك شامياً دمشقياً سورياً، لم تقل لي يوماً إنك فلسطيني. فأجابه الأستاذ صفوح وكان مديراً لثانوية الثقفي في دمشق: أنا شامي دمشقي أباً عن جد، وهذه هويتي خانتها شام. ولكن ما الذي خطر على بالك؟

فأجابه زين العابدين: كنتَ مرشحاً لمنصب وذهب الأمن للسؤال عنك في مخيم اليرموك، لكن أحداً في المخيم لم يعرفك.

فقهقه صفوح وقال له: نحن برقاويون دمشقيون من حي الشاغور. أما برقاويو المخيم المشهورون فهم الفلسطينيون.

إنها دمشق. أمُّ العواصم الجامعة الصاهرة.

ماذا يعني أن يُطرح سؤال عن أصل وفصل وحال بعض سكان عاصمة عربية أو أية مدينة أو قرية مضى على وجودهم فيها ألف عام؟

عليّ أن أشير أولاً، إلى إن امتزاج سكان بلاد الشام (فلسطين وسوريا ولبنان والأردن)، قد ألغى الوعي الأصولي القومي والمناطقي لأغلب المدن الشامية على وجه الخصوص. فالمدن الشامية كدمشق والقدس وبيروت وطرابلس ونابلس ويافا وحيفا وعكا وحلب وحمص وحماة واللاذقية ودرعا وعمّان وصيدا وصُور مدن صهرت سكانها لغةً وعادات وتقاليد ووعياً والحديث عن الأصول نوع من التسلية ليس له أثر على الوعي وبالتالي على السلوك.

فمن النادر أن تجد مدينة شامية خالية من هذا التنوع التاريخي الذي صار متحداً مدينياً.
فليس للأكراد في المدن الشامية التي ذُكرت وعي ذاتي بكرديتهم، لا سيما أن عامل اللغة قد اضمحل من جهة، وعامل الاندماج في المدينة قوي جداً. هذا ناهيك عن أن الوعي القومي العربي المديني وعي حديث العهد. فالوعي الديني والوعي بالانتماء إلى المكان أقوى.

وإذا ما جرى الحديث عن دمشق فهي من أكثر المدن الشامية، إن لم تكن العربية، باستثناء القاهرة، التي شهدت قدوم عدد كبير من الجماعات السكانية التي أذابتها في قيمها وعاداتها ولهجاتها ومهنها.
ففيها من هم من أصول مغربية وفلسطينية ولبنانية وكردية وشركسية وكردية وحورانية الخ. فعائلات العكاوي الصفدي والنابلسي والقدسي والبرقاوي عائلات دمشقية شهيرة.
والدمشقيون من أصول كردية، رغم أنهم يعيشون في حي شامي هو حي الأكراد، غير أنهم بعد ألف عام من عيشهم المشترك لم يعودوا منتمين إلى وعي قومي ولغة قومية وزي قومي وطبخ قومي ومهنة قومية.
والأهم من هذا وذاك كله فإن دمشق الشعبية لم تشهد أية نزعات عنصرية مرتبطة بالأصل والفصل، فضلاً عن ذلك فإن جزءاً "مهماً" من النخبة الدمشقية الأدبية والفكرية والعلمية والتجارية والمهنية والسياسية من أصول متنوعة.
غير إن الأيديولوجيا التي لا عقل لها، وبخاصة لدى بعض المثقفين، تصطنع ما يفسد الحياة الطبيعية.

فالسؤال عن كرد دمشق ليس سؤالاً شامياً، وليس سؤال كرد دمشق، إنه سؤال أيديولوجيا تبحث عما يعزز هوية قومية في مدينة صهرت كل سكانها منذ آلاف السنين.

ماذا لو طرح هذا السؤال على خالد بكداش، أو على محمود الأيوبي؟، ماذا لو طُرح هذا السؤال على محمد كرد علي أول وزير للمعارف في سوريا، ورئيس مجمع اللغة العربية منذ ١٩١٩ حتى وفاته ١٩٥٣؟، ماذا لو طرح هذا السؤال على زياد الملا وصاحب بوظة بكداش في الحميدية؟، وعلى حسني الزعيم و...و...و...و؟

إن هذا لا يعني أنه ليس هناك مسألة كردية في شمال سوريا، ولا يعني أنه ليس هناك عنصرية مارستها السلطة الحاكمة على أكراد الشمال. غير أن تحويل القضية إلى أصول سكانية لبلاد الشام ليس سوي وعي أيديولوجي مصطنع وزائف.

الشخص صانع أم مصنوع؟

هل من العلم، والعلم ما كانت أحكامه موضوعية، أن نصدر حكماً على الفرد استناداً إلى أصله وفصله ومنبته الطبقي وانتمائه القروي أو المديني، ودرجة تعليمه والذهنية الموروثة؟ أم إن الفرد يكوّن شخصيته بدرجة ما بوعيه بذاته وخياراته الحرة، وقدرته على التحرر من الذهنية الموروثة؟

وسؤالنا هذا نابع من قول الفلسفة: لا علم إلا بالكليات. وهنا نواجه المشكلة التي نشأت من التمييز بين العلم الطبيعي والعلوم الإنسانية. فليس لأحد أن يناقش في صحة الحكم الموضوعي أن الحديد يتمدد بالحرارة، وأن المعادن جميعها تتمدد بالحرارة.

والاستثناء لا يغيّر من القاعدة، ولكن هل الحكم بأن جميع سكان المدن مقتصدون؟ وأن ردود فعل جميع القرويين عنيفة في التعبير عن الاختلاف؟

هذه الأسئلة وغيرها وضعت علم النفس وعلم الاجتماع وعلم التربية في مأزق شديد، فهل يمكن الثقة بأحكام عامة لهذه العلوم، التي يستحسن بعضهم بتسميتها بالمباحث، لافتقارها إلى دقة أحكام علوم الطبيعة.

دعونا نطرح السؤال الآتي: هب أن شخصاً قروياً ورث الوعي بالثأر بكل أشكاله من الثأر قتلاً إلى الثأر انتقاماً كلامياً. فهل الحكم الذي يقول: إن كل قروي شخص ثأري حكم صحيح أم خاطئ؟، هل هو حكم ينسحب على جميع القرويين؟.

الجواب حكم صحيح نسبياً وخاطئ نسبياً.

أو هل نحكم على شخص شيعي أو علوي أو درزي عاش في ثقافة تتوارث صفة التقية بوصفها جزءاً من وعيه الديني بأنه تقوي بالضرورة؟ وهل الحكم بأن جميع المنتمين إلى المذاهب الباطنية تقويين؟

هل تصبح الصفات المتوارثة بنية غير شعورية سرعان ما تظهر بتوافر أسبابها وكان الظن بأنها لم تعد من بنية الشخص؟

أن يكون الشخص قد وجد في بنية وعاش فيها يعني أنه ثمرة هذه البنية بقيمه وأخلاقه وردود أفعاله وثقافته ووعيه الجمالي. ولا يمكن أن يتحرر هذا الكائن من بعض عناصر البنية التي خلقته أو منها كلها إلا إذا كوّن وعياً جديداً بعالمه. إلا إذا وصل حداً من الوعي النقدي لعالمه.

ولهذا فإن كثيراً من الناس يتساءلون بدهشة كيف لأناس درسوا في أوروبا وأمريكا وقضوا سنوات طوالاً ولم يصبهم أي تغير في وعيهم المحلي، وعادوا كما ذهبوا؟

سألني أحدهم: كيف نفسر أن شخصاً يدافع عن الحداثة ويعلن المواجهة العلنية للدين غادر بلدته منذ أكثر من خمسين عاماً وعاش متنقلاً بين باريس وبيروت، وحين بنى بيتاً جديداً في قريته، بنى إلى جانبه قبراً فاخراً ليصبح مزاراً؟

إن فكرة المزار التي عاشها طفلاً صارت جزءاً من وعيه بوجوده بعد الموت، أراد أن يظل موجوداً بعد الموت بوصفه مزاراً.

إن التحرر من البنية الطابعة أمر في غاية الصعوبة ولهذا يتطلب التحرر من البنية الطابعة عقلاً يعمل بحرية وبمنطق عملي وقدرة على حب الجيد والتلاؤم معه وهذا أمر ممكن.

ولهذا عندما نقول عن شخص ما إن لديه عقابيل من وعيه القديم بالعالم ومن ثقافته الموروثة من المجتمع الضيق الذي عاش فيه، ومن طبقته التي ينتسب إليها إذا تحرر من هذا كله ولم يبق منه إلا القليل.

أما إذا أبقى على الكثير منه في وعيه وثقافته وذهنيته ولم يغادره وهو يعيش في عالم جديد مختلف فهو ماهية لم تتغير شأنها شأن الأشياء. والسلوك النظري والعملي هو المعيار للحكم على الظاهرتين.

وليس التخفي الشكلي وراء المظاهر الخادعة بمفيد، لأن الممارسة العملية هي معيار الحقيقة.

الطائفية والوجود الزائف

قال دكتور فلسفة لصديقه الدكتور في علم الاجتماع والذي روى لي قوله: أنا لا أستطيع إلا أن أكون طائفياً. من أين نشأت هذه الجبرية في أن يكون المرء طائفياً؟ كيف لم يستطع دكتور يعرّف أفلاطون وأرسطو وابن سينا وابن رشد وماركس أن يتحرر من وعيه المتخلف في الانتماء؟ وهل يقود الانتماء إلى طائفة ما إلى عصبية طائفية بالضرورة؟ وما هي الوظيفة التي تقوم بها عصبية طائفية متعصبة؟ أن يكون المرء منتمياً إلى طائفة تكونت عبر التاريخ فهذه حال معقولة، لكن التعصب الطائفي ليس الانتماء إلى طائفة بل انتماء يقود إلى كره مختلف ذي علاقة بتاريخ متخيل وسردية تلقي بالمسؤولية على هذا المختلف باضطهاد ما، ويتحول هذا الكره إلى حقد تاريخي يولد الرغبة بالانتقام والثأر.

فالطائفي الشيعي العلوي أو الدرزي أو الإسماعيلي لا يكره المسيحي المختلف، لأن المسيحي ليس آخر في سردية تلومه. إن الآخر المكروه هنا هو السنّي.

بالمقابل إن السني المتعصب لا يعيش سردية تتحدث عن مسؤولية الطوائف التاريخية في عذاباته، ولهذا فهو ليس كارهاً بحقد، بل ينظر بعين الإقلال من شأن الطوائف ويشك بانتمائها إلى الإسلام الصحيح.

إذاً الانتماء الطائفي لا يقود بالضرورة إلى تعصب طائفي، كما إن الانتماء القومي والديني لا يقود حتماً إلى تعصب قومي وديني. ولهذا فإن السؤال الأجدر في البحث عن جواب له: ما هي الشروط التي تحول الانتماء الطائفي إلى تعصب، إلى طائفية تنطوي على حقد وعنف؟ وهذا السؤال يشبه تماماً السؤال حول الشروط التي تحول الدين إلى تعصب ديني والانتماء القومي إلى عنصرية قومية.

إن التعصب الطائفي ليس سوى التعبير الأيديولوجي الزائف لعصبية تسعى نحو السيطرة أو مسيطرة، أو مواجهة طائفية مع طائفة مسيطرة. وفي كلٍّ شر.

ولا شك عندي أن فهم الشروط لا يعني تبرير هذه الواقعة الخطيرة، بل تسمح لنا بأن نفكر في العالم الذي يحول دون وجود هذه الكارثة.

الطائفية داء وليست مرضاً عارضاً ومن أهم عوارضه موت الخلايا الوطنية المسؤولة عن حماية الانتماء. وتزداد خطورة هذا الداء إذا توارثتها الأجيال. أما إذا اشتعلت صراعات دموية بسببه فالشفاء منه يكون صعباً جداً.

ولهذا فلبنان منذ أول حرب أهلية عام ١٨٦٠ وحتى الآن لم يتحول إلى وطن. فوجود سلطة ومظاهر دولة خارجية وبطاقة هوية وجواز سفر مع هوية انتماء طائفية قابلة للاشتعال في أية لحظة كل ذلك لا يعني وجود وطن.

وقس على ذلك الكارثة السورية التي تولدت من طائفية السلطة العسكرية الأمنية الإعلامية والتي خلقت التعصب لديها وضدها معاً. فأية أقلية لا تستطيع أن تحكم بالعنف إلا إذا ولدت لدى المنتمين إليها عصبية متعصبة. وباستمرار هذه العصبية المتعصبة فإنه تحول الوطن إلى خراب خفي سرعان ما ينفجر. فالوطن وجود يحقق لساكنيه الأمن والحرية السياسية والاجتماعية والتساوي في الحقوق والواجبات. إنه المواطن نفسه. ويخلق الشعور المشترك بهذا كله. أي إن الواقع يجب أن ينعكس في الشعور بالانتماء.

إذاً هناك تناقض شديد بين الطائفية والوطن. وكل كفاح إذا لم يتحرر من داء الطائفية لا يؤدي إلى ولادة وطن. الخطاب الطائفي خطاب خطير كخطورة الوقائع الطائفية. ومواجهة وقائع طائفية بمواقف طائفية مضادة مواجهة زائفة. لأنه في حال كهذه لا تنتصر واقعة الوطن.

الإسلاموية والإرهاب

هناك ثلاثة عقول في مقاربة ظاهرة الإرهاب المتفشية الآن في عالمنا العربي وخارج عالمنا هذا:

الأول عقل أمني-عسكري، يرصد حركات الإرهابيين وأماكن وجودهم، ومصادر تمويلهم، وأسماء قياداتهم، وعدد أفرادهم، وكل ذلك للإجهاز على هذا الإرهاب. وعقل يتساءل عن استخدام الإرهاب وفائدته لأهداف مرتبطة بالمصالح. وعقل نظري- فلسفي، وسوسيولوجي وسيكولوجي، ينظر إلى الإرهاب من حيث شروط ظهوره الاجتماعية والسياسية والثقافية والنفسية والأيديولوجية لفهم هذه الظاهرة وتفسيرها، والبحث في الطرق المعرفية - الاجتماعية والتربوية بل والسياسية للقضاء على هذه الظاهرة المفسدة للحياة.

وإذا كان العقل الفلسفي النظري والاجتماعي والنفسي لا يكترث بالعقل الأمني حيث لا يقدم له هذا العقل معطيات مفيدة، فإن العقل الأمني - العسكري ليس باستطاعته أبدا التخلي عن منجزات العقل الفلسفي النظري، إذا ما أريد للمواجهة أن تكون ناجعة.

وقد دللت التجربة في السبعينات وبداية الثمانينات على أن المواجهة الأمنية قادرة على إخماد الإرهاب لفترة قد تطول ولكنه إخماد مؤقت، غير إن المواجهة الأمنية من قبل السلطة الاستبدادية لا تستطيع استئصال ظاهرة الإرهاب من جذورها، لأنها هي أحد الشروط التي أنتجت الإرهاب. ينطلق النظر الفلسفي للإرهاب من لا نسبية الإرهاب، فالنظر إلى الإرهاب نظرة نسبية يسمح بتبرير لبعض مظاهره وأشكاله، ولهذا يجب أن يكون الموقف كلياً.

نعود لمفهوم الإرهاب أولاً لنؤسس عليه خطابنا. الإرهاب: عصبية سياسية - أيديولوجية متعصبة بين جماعة من الناس، تأخذ شكل التنظيم تتوسل العنف ضد الأفراد والجماعات والدول لتحقيق أهدافها. وإذا كان الإرهاب هو هكذا، فإن السلطة التي تجعل من عصبيتها نافية للآخر نفياً عنفياً هي سلطة إرهابية، فالإرهابي كل فرد انتسب إلى هذا النمط من الجماعات ويمارس العنف الذي يتكئ على ما هو أيديولوجي.

الإرهاب المتعيّن الآن في الوطن العربي هو إرهاب إسلاموي شيعي وسني يستمد حضوره من عاملين: ديني من جهة وتبعيته لوظائف بعض الدول من جهة ثانية.

هنا لزاماً علينا أن نميز بين بين الإسلام بوصفه ديناً ينتمي إليه مئات الملايين من الناس، والإسلاموية التي ينتمي إليها بضعة آلاف من المسلمين.

الإسلام أمره معروف: أركان إيمان، شعائر، وطقوس عبادات وقيم أخلاقية.

أما الإسلاموية فهي أيديولوجيا سياسية تنسب نفسها للإسلام ودوافعها استلام السلطة وحكم الناس. وبناءً على هذا التعريف المجرد تستوي إسلاموية حزب الله وداعش والحوثي وجميع الحركات العنفية الإسلاموية شيعية كانت أم كانت سنية. فجميع الحركات الإسلاموية تنطلق من فكرة الحاكمية لله.

الإسلاموية مصيدة أيديولوجية خطيرة وبدائية طرائدها من المؤمنين السذج الواقعين في شروط اجتماعية تجعلهم يعيشون في مرحلة ما قبل التفكير العقلي والأخلاقي ومن ذوي الوعي القطيعي المولع بفكرة الخلاص موتاً.

والإسلاموية بوصفها مصيدة أيديولوجية لا تفعل فعلها إلا بفضل بنية الطرائد اللاشعورية المؤسسة منذ الطفولة في شروط التربية والحياة. فالانتقال من البنية

اللاشعورية، التي تعززها الخطابات، إلى الشعور لا يحتاج إلا إلى مصيدة بسيطة مليئة بطعوم تعرفها الطريدة أصلاً كالجهاد والاستشهاد، والفوز بالجنة الخ ولكن بعد أن تحول الإسلاموية هذه الطعوم إلى جزء من خطاب سياسي يدعو إلى استخدام العنف لتحقيق الولاء والانتماء و الفوز العظيم.

وأمام هذه الإسلاموية يطرح بعض منظّري الغرب السؤال الآتي :هل الإرهاب الإسلاموي قارّ في الإسلام نفسه؟ أو بصيغة أخرى: هل ينطوي الإسلام بوصفه ديناً على بذرة الإرهاب الإسلاموية؟

في الإجابة عن هذا السؤال تجب الإشارة إلى أن الإسلاموية حركة سياسية وليست حركة دينية. وهي حركة متعسفة في التأويل الذي يسمح لها بالبقاء في حقل الإسلام بنظر المسلمين. تعسف يصل حد الاعتداء على الأسس الأخلاقية للدين الإسلامي. ويجب ألا ننسى أن المعركة بين الإسلام والإسلاموية قديمة.

ولو أخذنا مرحلة عصر النهضة العربية فقط فسنجد أنه عاش هذا الصراع وما زال عصرنا يعيشه.

فلقد أنتجت المرحلة الناصرية شخصيتين متناقضتين:

- **خالد محمد خالد** صاحب كتاب **(الإنسان أولاً)**، الكتاب الذي يدافع عن الحياة الجديدة والدولة الحديثة انطلاقاً من الإسلام.

- وسيد **قطب** وكتابه **(معالم على الطريق)** الذي يدعو إلى التحرر من الجاهلية وتحقيق فكرة الحاكمية لله.

وفِي بلاد الشام نشهد الآن الفرق بين خطاب **محمد شحرور** في كتابه **(الكتاب والقرآن)**، وخطاب **عصام البرقاوي** الملقب بأبي محمد المقدسي وكتابه: **(ملة ابراهيم)**. الداعي إلى رفض الدول والحكومات الراهنة.

في خوض المعركة مع الإسلاموية يجب يكون فيها الإسلام ضد الإسلاموية، ولا حل وسطاً. ومقاومة الإسلاموية عربياً تتطلب النظر إليها بمجملها على أنها شر يجب وقاية المجتمع منه إن لم يُصَبْ به أو إبراء المجتمع المصاب به.

هي ذي نقطة انطلاقتنا في هذه المسألة المختلفة عن نقطة انطلاق الغرب عموماً، أمريكا غرب. فسؤال الغرب هو: كيف نأمن شر الإسلاموية العنفية من أن تقترب من حدودنا؟ وكيف لنا أن نوظف شرها، عند الضرورة لمصالحنا؟

ولهذا فإن الغرب لم يقطع بعد عن الإسلاموية، وما زال يرى فيها جهة سياسية قابلة لأن تكون ذات وظيفة في خدمته. بل وإن الغرب ما زال يميز بين إرهاب سني وإرهاب شيعي، إلى درجة قد لا يرى في الإرهاب الشيعي الخطورة التي يراها في الإرهاب السني.

من الكوميديا الثقيلة الظل أن نميز بين إرهاب سني وإرهاب شيعي، وأن تكون بعض الدول طرفاً مع نوع من الإرهاب ضد نوعٍ آخر. وما الصراع بين الإرهابيين إلا مظهر من مظاهر الركود التاريخي.

ومواجهة الإرهاب عربياً، بكل صوره وأشكاله وأدواته، أي مواجهة الإسلاموية، هي مهمة الدولة والمجتمع معاً.

مهمة دولة ذات عقل دولة، ومهمة مجتمع يشعر بالولاء والانتماء للدولة. مهمة دولة مواطنة متحررة من الانحياز الطائفي، ومجتمع مواطنة متسامحة. الدولة التي وحدها تحتكر القوة، للحفاظ على حق الفرد وأمنه وحريته وليست الدولة التي تستخدم القوة والعنف ضد شعبها أو جزء من شعبها.

إن الإسلاموية هي صندوق باندورا في الأسطورة اليونانية. في داخله كل الشرور، غير أن هناك أمراً واحداً لا يستطيع صندوق باندورا أن ينتصر عليه ألا وهو الأمل.

المستنقعيون والراديكالية الزائفة

لا شك أن انفجار المستنقع السوري الذي بدأ بالتكون منذ خمسين سنة ونيف، قد قذف كل ما في داخله إلى السطح، وبخاصة القيم الآسنة التي تراكمت عبر هذا التاريخ.

فمن عاش القيم الآسنة ولم تحرره النار الثورية منها، فليس له أن يكون جزءاً من عقل التجاوز والقطيعة، بل سيكون الصورة الأخرى للوسخ التاريخي.

الوسخ التاريخي الذي يظهر بأشكال الاعتداء لا يمكن أن يكون ثورياً، الوسخ التاريخي لا يمكن أن يكون ثورياً حتى لو لبس ثوب الثورة البراق.

الكَتَبَة "الثوريون" المتطفلون على الكتّابة والذين ما زالوا يحملون قيم الوسخ التاريخي إنما يخدعون العقل العام براديكالية زائفة وخطاب شتائمي.

ففي بداية الثورة السورية قدّمت أجهزة الجماعة الحاكمة بعض الأسماء الزائفة على أنها أسماء ثورية راديكالية جداً جداً، ووجدت لها جمهوراً كبيراً بسبب الصورة الراديكالية هذه، ثم بدأت هذه الأسماء الزائفة بالنيل من أقلام الثورة الحقيقية على أنها أقلام مترددة وذات علاقات غير محمودة، وظلت فاعلة حتى انكشف أمرها.

الراديكالية موقف جذري لا مساومة فيه من حيث المبدأ. لكن الراديكالية على ثلاثة أنواع:

- **راديكالية ذات ارتباط بالحقيقة:** والنزعة الإنسانية وتجاوز الواقع المعاش نحو واقع أرقى.

- **راديكالية متخلفة**: راديكالية قوى تدافع عن واقع مرفوض وبنية لم تعد قادرة على الحياة.

- **راديكالية أصولية:** متخلفة تتوهم قدرتها على إعادة إنتاج الماضي في الحاضر.

وراديكالية زائفة، وهي تمثيل الدور الراديكالي طمعاً بما هو ذاتي وفردي، وتنتهي بتحقيق المصلحة الانتهازية.

وإلى هؤلاء ينتمي الجيفاريون الجدد من الكَتَبَة المتأخرين الذين يمارسون الدور نفسه شهوة بالحضور الزائف.

يا بعض الكتبة "الثوريين الجيفاريين" (نسبة إلى أرنست تشي جيفارا)، يا من تخوضون معاركـكم الحلّبية على ساحات الفيسبوك، وتنشرون لغوكم في جرائد ومجلات سداً للعوز (وهذا ليس عيباً)، وبخاصة الجدد منكم، الراغبين بشهوة الحضور السريعة، وإرضاءً لمن يجب أن يرضى، ويا من تعانون من عقدة الخصاء، أطلب منكم أن تكفّوا عن منح شهادات حسن سلوك أو سوء سلوك لهذا أو ذاك. وأن تُغنوا عقولهم بالقراءة علكم تتجاوزون ما أنتم عليه من ذهنية رعاعية تبقيكم في درجة الوجود الزائف. انشغلوا بذاتكم ووعيكم بالعالم، ودعوا القيل والقال إلى عجائز الحارات. لا صعوداً على أجساد الآخرين، لا صعود إلا بأجنحة تنمو في الذات وتتطور في الذات.

في الاسم المستعار وفلسفة التخفي

ماذا يعني أن يستعير شخص ما اسماً غير اسمه الحقيقي؟

من ذا الذي يعرف - مثلاً - اسم لينين الحقيقي؟ قليل ولا شك يعرفون أن اسمه فلاديمر إليتش إليانوف. وقد لا يعرف أحد من العرب أنّ اسم ستالين هو يوسف فيساريو فتش، أما جورج صاند (ساند) فقليلون يعرفون أن هذا الاسم لامرأة اسمها أمانتين أرور لوسيل دوبين.

والحق أن فكرة الاسم المستعار ليست جديدة في التاريخ ولو عدنا إلى التاريخ العربي الجاهلي والإسلامي لسرد الأسماء المستعارة لما اكتفينا بكتابة مقالة كبيرة. فالشاعر الصعلوك تأبط شراً هو ثابت بن جابر بن سفيان، والحطيئة هو أبو مُلَيْكة جرول بن أوس، وقس على ذلك.

وأن تختار أنت الاسم بنفسك فهذا يعني صورة من صور وعيك بذاتك، أما إن اختار الآخرون لك الاسم فهذا يعني وعي الآخرين بك. وأنا هنا أتحدث عن غلبة الاسم المستعار الذي اختاره الشخص على الاسم الحقيقي. فقد اختار فلاديمير إليتش إليانوف اسماً من نهر يجري في سيبيريا، حيث كان في المعتقل "اسم النهر لينينا". فيما اختار يوسف فيساريوفيتش اسم ستالين وتعني الفولاذ.

من هنا الفرق بين رجل الثورة الرومنسي ورجل الثورة العنيف. (سرق ستالين مرة بنكاً لصالح الثورة). لقد حددت البنية النفسية لكلا الرجلين الاسم المستعار.

يحمل النهر دلالات كثيرة يحمل معنى السيرورة والجريان الدائم، يحمل معنى تزويد الأرض بالماء، يحتوي على معنى الحياة حيث تعيش فيه كائنات حية، فضلاً عما يوحي به النهر الصغير من روحانية، الخيال هنا خصب.

فيما الحديد الصلب لا يوحي إلا بالقوة والصلابة وعدم الانكسار وقد دللت الأيام على تطابق الاسم مع المسمى. فهذا الدكتاتور القاتل لم يكن إلا أصفاداً من الحديد وقوة منفلتة من عقالها. لقد أعدم ستالين خيرة رفاقه، بينما طلب لينين من تروتسكي الذي اختلف معه أن يعود إلى الثورة للاستفادة من عقله الوقّاد. ولهذا سمى تروتسكي ستالين: "بالمزحة التاريخية المزعجة". لكن لينين قُتل أيضاً، وهو الذي أمر بقتل القيصر وأسرته.

والأمثلة كثيرة على اختيار الاسم المستعار تيمناً بالأشياء والأساطير. فالشاعر السوري علي أحمد سعيد اسبر اختار أن يسمي نفسه أدونيس إله الخصب السوري بصيغته اليونانية. وعرف الشاعر سليم رشيد الخوري بالشاعر القروي، وقس على ذلك.

ولقد شاعت في الثورة الفلسطينية الأسماء المستعارة وخاصة لدى تنظيم فتح والتي تبدأ "بأبو": أبو عمار، أبو جهاد، أبو إياد، أبو الهول، أبو مازن... الخ.

ولعمري إن اختيار الاسم الذي يبدأ بأبو يحمل أكثر من دلالة. "فأبو" تشير إلى الأب، والأبوة على المستوى النفسي تشير إلى الهيمنة والسلطة والمكانة الخاصة، وضرورة الخضوع والاحترام.

وفي المشرق العربي خصوصاً إن المناداة بأبو فلان تمنح المنادي مكاناً واحتراماً وهيبة. ولهذا فأغلب قيادات فتح التاريخية ذات أسماء مستعارة تبدأ بأبو. لكن الاسم الأصلي هو الآخر معروف وإن غاب عن حقل التداول.

كما ظهرت - ولأسباب أمنية - ظاهرة الاسم الحركي في ذروة الثورة الفلسطينية، بحيث غاب الاسم الحقيقي وبخاصة في الأوساط الشعبية، ولم يكن كثير من الناس يعلمون أصلاً أن أسماءهم حركية.

وكان لنا أصدقاء كثر نعرفهم بأسمائهم المتداولة، لنكتشف في النهاية أسماءهم الحقيقية بعد أن برد حجر الثورة وعاد الكثير منهم إلى الوطن بعد أوسلو. اختيار الاسم الحركي - من خلال معرفتي ببعض الأصدقاء - اختيار خاص بالتجربة الفردية كاختيار اسم أب، اسم صديق، اسم تاريخي، وكان الاسم والكنية معاً حركيين. لقد صار الإنسان سرياً إنه هو باسم آخر. الاسم الآخر يحمل دلالات نضالية والنضال يفرض السرية. ومع انتهاء التجربة السرية عاد الشخص إلى اسمه ولقد تخلى عن تلك الشخصية التي كانها.

أذكر حادثتين: فلقد دعاني (تلفزيون أبو ظبي) لحلقة حوارية، وحدثني المذيع الريان آنذاك عن شخص آخر سيكون معي في الحوار هو عريب الرنتاوي، وسألني إن كنت أعرفه، فأجبته مع الأسف لا أعرفه. وهتف إلى عريب الرنتاوي

من غرفته لنلتقي في لوبي الفندق، فإذا هو الصديق عماد الرحايمة الذي كان مديراً في مجلة (الهدف)، ومدير دار (عيبال).

وحين سافرت لفلسطين لم أكن أعرف نايف جراد الذي قيل لي إنه سيدعوني لمحاضرة في جامعة الاستقلال، وحين ذهبت للجامعة فإذا هو الصديق وابن بلدي الذي كان اسمه في دمشق أحمد كنعان.

إنه الآن هوية متطابقة مع اسمه الحقيقي، والاسم الحركي بشخصيته التي كانت أصابها البلى. أنا لا أعرف بدقة لماذا اختار الصديق نايف جراد أن يكون اسمه الحركي أحمد كنعان، لكن وجود اسمي أحمد وكنعان في الاسم يدلان على وعي الانتماء للأصل العربي الكنعاني.. وهكذا.

والخوف من الاسم الصريح خوف على الذات من الإيذاء، الذات التي تمارس عملاً خطيراً أو تقول قولاً غير مقبول يمس المقدس.

فكاتب كتاب "قسُّ ونبي" شخص يُدعى "أبو موسى الحريري"، شخص غير معروف ويكتب باسم مستعار لأنه يخاف - مثلاً - من غضب المسلمين والإسلاميين. لأن الكتاب يتحدث عن أثر الراهب بحيرا في ثقافة الرسول.

وقد كنت أقرأ في النهج لشخص اسمه لؤي أدهم وتبين أنه الدكتور عصام الزعيم. لؤي اسم تقية لشخص يعمل في الأمم المتحدة ويكتب في مجلة الأحزاب الشيوعية. غير أن الظاهرة الأبرز في الاسم المستعار وقد انتشرت انتشاراً واسعاً على حسابات "الفيس بوك".

أربعة أسباب تحمل الناس على الاسم المستعار على الفيس بوك:

أولاً: الخوف من السلطة التي يعتقد الجميع أنها قادرة على اختراق الصفحة ومعرفة ما يدور فيها من حوار. وأغلب الذين آزروا الثورة السورية من الفيسبوكيين والعائشين في سورية كتبوا بأسماء مستعارة.

ثانياً: الخوف من المؤسسة الاجتماعية وبخاصة بالنسبة للإناث، الاسم المستعار تورية تقوم عبرها الآنسة أو السيدة بكتابة ما لا تستطيعه في العلن.

ثالثاً: ممارسة العنف اللفظي. فأغلب الذين يشتمون على العام والخاص كائنات ذات أسماء مستعارة وصور لا تشير إلى أصحابها.

رابعاً: أسماء مخابراتية متنكرة وتأخذ دور المعارضة الراديكالية، فتخلق لدى المتلقي ثقة بها، ثم تبدأ بالنيل من المعارضين بوصفهم أقل ثورية.

فالسادية المستترة وراء اسم لا يشير إلى صاحبه تحلل من عقال القيم ولهذا تظهر في صور الشتائم الجنسية والألفاظ النابية في كل ما من شأنه إحداث الأذى.

ولهذا ترى أن الشبيح على الأرض يوازيه شبيح على الفيس بوك. حيث يظهر الشبيح الفيسبوكي ذو الاسم المستعار بصورة لأحد أفراد السلطة وخلفية لصورة الثلاثة، وهم يضعون النظارات السوداء على عيونهم ومكتوب تحتها هكذا تنظر الأسود.

ولم يفكر صاحب الصورة كيف لنا أن نرى نظرة عيونٍ مخفية بنظارات سوداء. والحق أني شاهدت عدة برامج حول الأسود وحياتها ولم أشهد حتى الآن أسداً

يلبس نظارة سوداء. هذا الذي يريد أن يظل مجهولاً باسم مستعار مختلف عن الاسم المستعار لشخص معلوم. الثاني يتوسل الشهرة من الاسم المستعار فيختار - كما يظن - ما يليق به من أسماء - صفات وأسماء تاريخ وأسماء أشياء. فيما الأول يعتريه شعور بالخوف، بدءاً من الخوف المشروع على الحياة وانتهاءً بالخوف من الفضيحة.

وشتان ما بين خائف من أقبية التعذيب بسبب قول فيسبوكي ويعرف من خبرته وخبرة أصدقائه المصير المؤلم لتمرده القولي، وبين الشبيح الخائف من أن يفضح اسمه الصريح انحطاطه الأخلاقي.

أما أسماء أهل الفن المستعارة فالمقصود أن يكون وقعها على الأسماع جميلاً ومؤثراً، فناديا لطفي اسمها الحقيقي بولا محمد شفيق، ونجلاء فتحي اسمها الحقيقي فاطمة الزهراء حسين أحمد، وتحية كاريوكا اسمها الحقيقي بدوية محمد كريم علي السيد.

وهذا يعني أن للاسم المستعار دلالات عديدة، أسوأ هذه الدلالات دلالة التخفي من أجل الإيذاء.

كتّاب الهُراء المتطاولون

يقول المعجم العربي: الهُراء الكلام الكثير الفاسد الذي لا نظام له. ورجل هُراء إذا كان كثير الكلام هذّاء، أما المرأة فهراءة وهذاءة، أما الفعل فهو هرأَ.. ومن معانيه أخطأ وقبُح كلامه.

وفي كل الفترات، بما فيها الفترات الانتقالية للتاريخ التي تشهد صراعاً وعراكاً ومواقف متنوعة من حركة التاريخ ووقائعه، يظهر في الغالب نمط من الكتاب أسمّيهم "كتّاب الهُراء".

وكتّاب الهُراء هو ذلك الصنف من الكتَبة الذين يستعيرون فكرة من هنا وقولاً من هناك، ويقمّشونها في جمل غير مفيدة، ويتّكئون عليها مُعلنين أنهم نقاد الفكر، متطاولين جسداً وشهوة بالحضور.

"يحفظ مثقف الهراء عن ظهر قلب أقوالاً مأثورة وغير مأثورة"، ويكدّسها في عقله ويبدأ بتفريغها بمناسبة أو دون مناسبة، ومع الأيام ينسى نسبتها إلى أصحابها فيتوهّم أنها من صناعته.

أو ذلك الذي قرأ بعضاً من كتب عباقرة الغرب أو مقتطفات مما كتبوا، وراح بسبب أو دون سبب يستشهد بهم لتأكيد اطّلاعه الواسع على ثقافة الغرب،

وكأن لسان حاله يقول: إن الهيبة تتطلب نسبة الأقوال إلى هؤلاء العباقرة، حتى يجري الاعتراف بتفوّق المثقف المستظهِر لأقوال الغربيين.

- أو ذلك الكاتب الذي يستخدم تلك المفاهيم الصعبة والمألوفة لدى أهل علم دون أن يكون على دراية بمعانيها وبأحكامها المضمرة فيها، فيضعها في غير موضعها، وينتقل من مفهوم إلى آخر دون أي مسوّغ فكري أو نظري أو منطقي، فلا تدري عن أي موضوع يتحدث، وما هو مضمون كلامه العَرَمرَمي.

- أو هو ذاك الذي يتحدث دفاعاً عن الوقائع التي تحتاج إلى نقد بلغة بلاغية ركيكة مبتذلة، ويجمّل القُبحَ السائد بطريقة لا نجل فيها إطلاقاً.

أو هو ذلك الذي امتهن النقد الشفاهي لأصحاب الأقلام المهمومة بقضايا الإنسان وحريته، والمبدعة في الأدب والفكر، ودون أن يؤلف جملة مفيدة يمكن أن تُنسَب إليه.

- أو هو ذلك الذي يهرب من مشكلات البشر الحقيقية بحجة نقده للأيديولوجيا، ومقصود الهروب من القول الحق والنقد البنّاء والانتماء للوطن، فيتحدّث عن فقدان الأمل بالناس ويُلقي باللائمة على البسطاء، بوضعهم مسؤولين عن واقع الحال.

- أما أسوأ أنواع كتّاب الهُراء قاطبة فهم أولئك الذين يستلّون سيف النقد ليتناولوا ظاهر الوقائع ويتحاشون الاقتراب من أساسها وأسبابها، لا تقيّة أو خوفاً، بل انتماء للبنية المؤسِّسة للخراب.

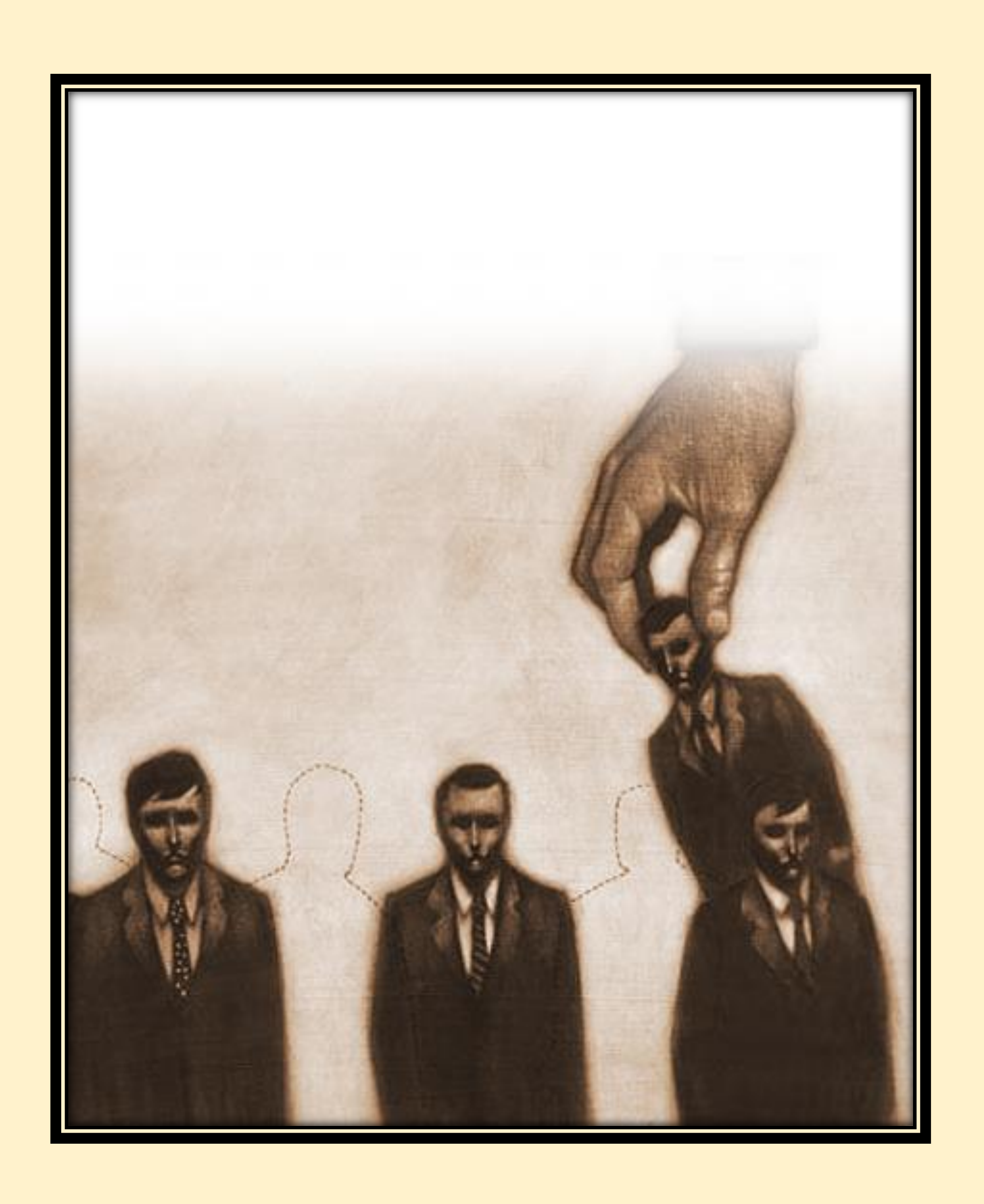
وهؤلاء لم تدركهم حِرفة الكتابة أصلاً، وليسوا من أهلها، ولكن الفيسبوك، سامحه الله، حوّلهم بقدرة قادر من أكاديميين كُسالى منتمين إلى البنية إلى كتَبة يحضرون في نقد أزمة الخبز والمازوت وما شابه ذلك، أو أولئك الذين يتوسّلون الفيسبوك ليقولوا قولاً ممجوجاً ثقيل الظل حول وقائع لا قيمة لها.

إنّ أي نقد، يصدر عمن يكتبون من خارج المكان الخطر، ولا يتناول نقد البنية، هو نقد كذابين في حقيقتهم. أي نقد لا يتناول بالفهم والتحليل العصبية الطائفية المسؤولة عن الدمار في سوريا، وظيفتها بالقوى المهيمنة عالمياً ليس نقداً، إنه هُراء، لا يتناول الميليشيات الطائفية وإيران، نقد يهرب من الحقيقة، أيّ نقد دافعه إصلاح الخراب الذي لا يمكن إصلاحه، هو نقد المنتمين إلى الخراب.

الكاتب الجذري ليس الكاتب الذي يتوسّل الشتيمة خطاباً، بل الذي يحفر وراء الظواهر ليكشف أعماقها. وكل بديل لا يستند إلى قطيعة تاريخية مع البنية المسؤولة عن الخراب ليس بديلاً.

هذا الهرّاء يتوارى خلف لغة ميتة باردة وقورة يفوح منها خبث الرياء والخداع. أي نقد من كائن احتفظ بروح العبودية التي ولدته ليس بمقدوره أن ينطق بكلمة لا للأصفاد التي أدمن العيش فيها.

ألا فاعلموا.



وقحو الفيسبوك وجبناؤه

كتب الشاعر العزيز محمد علي اليوسفي على صفحته بتاريخ ١٥ ديسمبر ٢٠١٩ قائلاً: "سؤال يحيّرني: لماذا يُسلّح الفيسبوك المجولَ بالوقاحة والجبانَ بالجرأة؟"

وسؤال كهذا سؤال مهم جداً في هذا العصر الذي أتاح لكل من تعلم في المدارس أن يكتب دون أن ينتمي إلى صنف الكتّاب بالمعنى المتواضَع عليه. ناهيك عن أن كثيراً ممن امتهنوا الكتابة وجدوا في وسائل التواصل مكاناً يسعفهم في قول ما يريدون قوله.

إن سؤال الشاعر محمد علي اليوسفي سؤال احتجاجي بالأساس، وأعتقد أنه على دراية بالجواب. غير أني وجدت في السؤال فرصة لفض هذه الظاهرة المشينة. مشينة لأنها تنتمي إلى قيمة سلبية يدينها الوعي الأخلاقي ألا وهي الوقاحة الجبانة، فوقاحة الجبناء تختلف عن وقاحة مواقف الشجعان، الأولى طعنات في الظهر وهروب من المواجهة، والثانية مواجهة وجهاً لوجه. ولتحليل هذه الظاهرة وفهمها لا بد من العودة إلى مفهوم المكبوت.

المكبوت نوعان: نوع لا شعوري لا يظهر إلا في حال تراخي سيطرة الأنا (في الحلم، في حال السكر، في زلات اللسان) وهذا ما أشار إليه فرويد. وهو مكبوت ليست الذات مسؤولة عن وجوده وظهوره. أما النوع الثاني فهو المكبوت الشعوري، حيث يقوم الفرد بكبت ذاته إرادياً، إما خوفاً أو مصلحة، أو خجلاً أو تآمراً.

وأسوأ أنواع الكبت الشعوري كبت الشر تجاه الآخر، لأن كبتاً كهذا ينتظر الشرط الملائم للظهور. وتكون الدهشة كبيرة في ظهور المكبوت العدواني لدى فرد تجاه آخر أظهر له وجه المحبّ زيفاً.

إذاً تنتمي ظاهرة الطعن في الظهر إلى المكبوت الإرادي، الذي يظهر في تنمّر الجبان ووقاحته.

اشتقّت العرب المُواجَهة من الوَجْه، حيث تكون المحاورة أو المشاجرة، أو الاختلاف الصراعي بين اثنين وجهاً لوجه.

دَعْني من الحروب بين جيوش الدول، أو الصراعات الجماعية، وتأمّلْ معي المُواجَهة بين رأيَي اثنين، قد تنتهي المواجهة إلى اتفاق، أو إلى تعميق الخلاف، أو إلى وقوف كل طرف عند رأيه، وتنفضّ المواجهة.

في المواجهة الفكرية ليس هناك غالب ومغلوب بالمعنى الحربي للكلمة، بل كل طرف هو غالب، حتى لو لم ينجب القناعة لدى الآخر برأيه. ولكن قد تختلف آثار المواجهة النفسية عند الطرفين، فقد يشعر طرف منهما بقلّة الحيلة في

التعبير عن زاوية رؤيته، وقد يختار الصمت موقفاً مهذّباً من أن تصل المواجهة، إذا كانت حارّة، إلى حد الخصام.

وقد تترك المواجهة أثراً غير محمود عند الطرفين أو عند أحدهما، وقد يكون هذا الأثر مؤقتاً، وقد يكون طويلاً. وتكون المواجهة - كل أشكال المواجهة الفكرية مهما اتسمت بالحدّة- طقساً نبيلاً، حتى لو كان أحد الأطراف حارّ العقل والآخر بارده.

ففيها شجاعة الصراحة والتعبير الواضح. ولهذا ليس من شِيمَة المواجهة الفكرية أن تنجب الأحقاد المُتبادَلة، إلا إذا كان الطرفان نذلين أو أحدهما نذلاً. ولَعَمْرِي إن الروح الأرستقراطية الفكرية، غالباً ما تتسم بالتسامح، واعتبار الاختلاف عابراً إذا ما كانت المواجهة الفكرية بين الأصدقاء. فروح الصداقة لا تنال منها المُواجَهات النظرية.

وتختلف المواجهة بهذا المعنى عن الطعنة في الظهر. فالطعنة في الظهر تفيد الغدر والخيانة لآخر تربطك به علاقة معشرية ما، فالطعن في الظهر لا يكون مع عدو، فكل أشكال نفي العدو مشروعة، ولهذا فالطعن في الظهر سلوك منحطّ أخلاقياً، لأنه عدوان غير متوقّع من صديق أو ما شابه ذلك.

ما هي أسباب الطعن في الظهر؟

قد تكون الأسباب أحقاداً دفينة اعتملت في النفس نتيجة الشعور بالدُّونية، وقد تكون حالة انتقامية من موقف ما عجز الشخص عن مواجهته،

وقد تكون الطعنة هذه رغبة في الحضور أو شهوة حضور سببها العجز، أو قد تكون ثمرة عقدة الخِصَاء، أو بسبب شعور خَفِيّ بالحسد، أو ثمرة تربية سيئة، أو ثمرة ذهنية جماعة تتسم بالغدر والخيانة.

وتثير الطعنة في الظهر حالة غَضَبِيَّة في نفس المطعون؛ لأنها غير متوقّعة من شخص ظُن بأنه صديق أو زميل أو مُحِبّ. وكانت الطعنة، قبل ظهور "الفيسبوك"، تتم عَبْر النميمة والقِيلِ والقَالِ، وإذا كان الطاعن من أهل القلم فقد يكون النقد الوَقِح وسيلة الطعن.

وبعد ظهور "الفيسبوك" وسواه من وسائل التواصل الاجتماعي صار الطعن في الظهر حالة يتسم بها الجبناء والرعاديد، فهؤلاء المتنكّرون الذين كانوا يتخوفون من المُواجَهة حصلوا على أهمّ وسيلة في الطعن عن بُعد. فإذا كانت المُواجَهة تُظهِر شجاعة التعبير عن الاختلاف، فإن الطعن في الظهر، وبخاصة بأدوات التواصل الاجتماعي، يبرز وَضاعةَ النَّفْسِ وتفاهة الشخصية.

لقد وفّر "الفيسبوك" للرعاديد مكاناً يختبئون خلفه بعيداً عن المطعون الذي يترفع عن الرد عليهم خوفاً من أن تصيبهم الشهرة من قلمه النبيل. وعندي بأن الذين سرت فيهم أرواح الأرانب في فترة طويلة من العيش الخانع فترة الديكتاتورية هم الذين تحوّلوا إلى هذا النمط من الانحطاط القيمي. والبُرْءُ من هذا الداء يحتاج إلى وقت طويل.

الوقح الجبان يخاف بالأصل، الآخر الموجود أمامه بشحمه ولحمه ويكرهه، هو الآن بعيد عن عيني الآخر الذي يكرهه ويحقد عليه، بعيد عن رد فعله. فليمارس إذاً انتقامه من الآخر المخيف ومن ذاته الخالية من الشجاعة.

كل من يتطاول أو تتطاول على آخر بلغة وقحة إنما يعبران عن الانحطاط الأخلاقي والشعور بلذة النيل من القوي البعيد، من جهة، وعن ذات هي في طبيعتها وقحة وجبانة من جهة ثانية.

يمارس الفيسبوكيون على صفحاتهم حرياتهم التعبيرية دون تقيّة تُذكر، ولما كانت الحرية ممارسة الإرادة دون أن يكون مقصودها إيذاء الآخر، والنقد ليس إيذاءً، فإنه ليس لأحد أن يعطي لنفسه الحق في أن يكون مختاراً يمنح حسن سلوك لنصوص هذا ويمنعه عن آخر، أو أن يتصرف بعقلية معلم يجعل من ثقافته ومعرفته حتى لو كانت محدودة جداً معياراً للحكم فيعطي علامة الصفر أو العلامة التامة لأصحاب القول.

ولعمري إن تجاهل ما لا يروق لك من الأقوال المكتوبة، ينجيك من القيام بدور المختار والمعلم، أما إذا كنت من أهل النقد المعرفي والجمالي وكتبت رأيك فيما يُكتب واختلافك مع مضامين النصوص وشكولها فلا تثريب عليك.

راهننا وحزام الفاشية:
من حزب الله وداعش إلى السوشال ميديا

عرّفنا الفاشية في الموسوعة العربية الفلسفية: بأنها جماعة من الناس ذات عصبية أيديولوجية متعصبة منظمة تنظيماً صارماً يقودها زعيم يتحول لدى جماعته إلى كلي القدرة وإلى آمر مطلق، وتتوسل هذه الجماعة القوة بكل أشكالها لتحقيق أهدافها. ويمكن للفاشية أن تتعين في سلطة حاكمة وفي حركة سياسية وفي جماعات عنفية، كما يمكن للأيديولوجيا الفاشية التي تؤسس للعصبية المتعصبة أن تكون دنيوية أو أن تكون دينية. وما يميز الجماعات الفاشية صرامة التنظيم والشعارات الرمزية، والأشكال الخارجية المرعبة، كفاشية حزب الله مثلاً. لكن الأهم هو معرفة الجمهور الفاشي.

يتكون جمهور الفاشية غالباً من أقلية مثقفين موتورين وأكثرية من البروليتاريا الرثّة. إن الدفاع عن المهمشين والبروليتاريا الرثة -فقراء المدن وسكان مدن الصفيح وعن الطبقتين العمالية والفلاحية هو رفض للعبودية في إهابها الرأسمالي -العولمي، وفِي الدكتاتوريات العسكريتارية الرعاعية. لكن هذه الفئات لم تتكون في حقل ثقافي- معرفي يسمح لها بخوض نضال واعٍ منظم.

من هنا كان الدكتور ماركس والبورجوازي إنجلز والحقوقي لينين والدكتور جيفارا والفيلسوف هربرت ماركوز، وما شابه هؤلاء الناطقين باسم مصالح هذه الفئات وتحريرها. وإن طبقة الرعاع إذا ما أفرزت من بين صفوفها قادتها فإنها لن تفعل سوى إنجاب قطاع طرق في النهاية.

ولا شك بأن انحدار جزء كبير من الفئات الوسطى في بلاد العرب إلى المستوى الأخلاقي والقيمي الرعاعي قد صعّب عملية إنتاج النخبة التي تنتجها عادة الفئات الوسطى. والملاحظ أن الفئات الهامشية والبروليتاريا الرثة هي التي كانت خزان القوى الهمجية للدكتاتوريات والحركات الأصولية الرعاعية. وأن جزءاً من الفئات الوسطى قد انحاز إلى هذا الطرف أو ذاك بسبب انحطاط الوعي.

فالمتأمل بجمهور الدكتاتوريات الفاشية سيجد أن العصبية لهذه الدكتاتوريات إما عصبية طائفية، أو مناطقية أو عسكرية قروية. إن الحركات الفاشية تفسد كفاح المجتمع وفئاته وطبقاته الاجتماعية. فالثورة السورية هي ثورة شعب بكل فئاته الاجتماعية من فئات وسطى وفلاحين وعمال ومثقفين ومهنيين، فجاءت الحركات الفاشية بكل ما تمتلك من عنف، إلى جانب عنف الفئة الفاشية الحاكمة وعنف رعاعها وسلبت حركة التاريخ وإرادته العقلية. فاتحدت فاشية النظام ورعاعه مع الفاشية الأصولية لتخريب منطق التاريخ.

فإذا نحن أمام صراع فاشيتين: صراع بين فاشية داعش وفاشية حزب الله، بين الفاشية الأسدية وفاشية النصرة. وصراع الفاشيات لا ينتج إلا فاشيات.

أما وعي الحركات الفاشية فهو وعي يقوم على العماء الأيديولوجي السلفي وغير السلفي. فحزب الله مثلاً، وهو أبرز الحركات الفاشية التي شهدتها المنطقة العربية، ينطلق من تقديس اثني عشر إماماً معصومين عن الخطأ، ومن انتظار عودة إمام من الموت للانتقام.

فيما داعش وأخواتها يتأسس وعيها على استعادة التاريخ الإسلامي والعمل على تحقيق ما كان في القرن السابع والقرن الثامن الميلاديين في القرن الحادي والعشرين. فيما وعي الجماعة الفاشية الدكتاتورية يقوم على أبدية سلطة منبتة ووهم البقاء الذي لا يبلى.

والحق أن وسائل التواصل الاجتماعي أتاحت لكل ما سبق ذكره من فئات أن تقدم خطاباتها وأخلاقها دون تورية. كما أظهرت الطبيعة الرعاعية لفئات لا تنتمي طبقياً إلى فئة الرعاع.

إن النجاة من هذا المأزق مستحيل دون نخبة متجاوزة تؤسس لحركات سياسية ومنظمات مجتمع مدني وجمعيات أهلية. ومن شأن تطوير النوى الجديدة وإبداع نوى أخرى أن تخلص المجتمع من الخيار المطروح عليه: إما قبول السيّئ عوضاً عن الأسوأ، فهو وعي مدمر للآمال. ولا يمكن لحركة التاريخ أن تغذ السير نحو الأرقى إلا بالبديل المتجاوز للسيّئ والأسوأ. وإلا فإن ما سماه غرامشي حزام الفاشية سيسد الطريق نحو الحرية لفترة طويلة.



عودة البربارية والتوحش

بعد تحطيم القيم الاجتماعية والدينية المؤسساتية التي قامت بها الأنظمة العسكريتارية في مشرقنا العربي ومغربه، واضعة الأساس العنفي للبربارية والتوحش بوصفهما نمط وجود للسلطة، نشأت أكثر صور البربارية والتوحش في تاريخنا العربي كله، توحش ميليشيات الوسخ التاريخي التي لم تخطر على بال عاقل في عالمنا.

ففي الأمس، وفي ساحة التحرير في صنعاء قامت الميليشيات الحوثية البربارية المتوحشة بإعدام تسعة أفراد بينهم طفل قاصر، وأمام مئات من الناس بتهمة اغتيال أحد زعمائهم. مع أن المقتول راح بقصف جوي، ولم يقتل بفعل بشري مباشر.

إن مشهد إعدام التسعة بالرصاص وهم مرميون على الأرض، والجزار يصوّب بندقيته إلى رؤوسهم أمر يطعن القلب. وقبلها قامت مليشيا حزب الله العراقي باغتيال مثقفين وصحفيين لا يملكون إلا أقلامهم وألسنتهم.

وفي لبنان لا تمضي شهور إلا ويغتال أفراد ميليشيا حزب الله بأمر زعيمهم الدموي حسن نصر الله رجال الفكر والسياسة، وهذه البربارية والتوحش هي

إستراتيجية انتهجها الحزب منذ اغتيال حسين مرة ومهدي عامل مروراً باغتيال الحريري، وانتهاءً باغتيال المفكر لقمان سليم.

وفي سوريا حيث تبارت الجماعة الحاكمة وميليشيا داعش والنصرة أيهما أكثر بربرية وتوحشاً في القتل والتعذيب. ولا تتوانى ميليشيات الحقد القومي الكردي من تصفية الخصوم بالطريقة نفسها التي تصفي فيها ميليشيات الوسخ التاريخي البربارية المتوحشة الخصوم.

أما في عالم مثل إيران وأفغانستان فإن البربارية والتوحش جوهر السلطتين في هاتين الدولتين. فالإعدامات التي تقوم بها دولة الملالي بحق المعارضين من كل القوميات لا حصر لها، وتاريخ طالبان لا يبشر بخير من حيث اعتقاد بعضهم بتحررها من البربارية والتوحش.

ويبدو أن تاريخ البربارية والتوحش الذي دشنته أنظمة الجيوش المنحطّة، وولادة الميليشيات من رحم هذه الأنظمة سيطول زمنه، فقوى الحرية والمدنية والقانون والعقد الوطني والاجتماعي باتت عاجزة أمام تحالف البربارين المتوحشين. وليس هذا فحسب، فإن التحالف مع المليشيات هذه من قبل الجماعات الحاكمة صار أمراً عادياً جداً.

ففي العراق يعترف النظام السياسي الحاكم بشرعية الميليشيات. والقوى المتخلفة في لبنان بقيادة جنرال أحمق تحالف مع ميليشيا حزب الله، والعسكر الحاكم في سوريا يد بيد مع الميليشيات في قتل الحياة.

وليس هذا فحسب، فإن دولاً كثيرة وجدت مصالحها في التعامل مع هذه الحركات المتوحشة. والأنكى من ذلك فإن الأمم المتحدة تعيّن مندوباً لها للتحاور مع الوسخ التاريخي كله.

والحق أن التساهل مع أي نوع من أنواع الميليشيات والأنظمة المتوحشة لهو مشاركة في تدمير أية إمكانية للتغير والتطور وحقوق البشر.

والمشكلة أن العالم المتسيّد يفصل بين مصالحه من جهة، ومصالح الشعوب المكتوية بالدكتاتوريات والميليشيات، من جهة ثانية، ولا أدل على ذلك إلا قول رئيس فرنسا ماكرون: بأن بشار الأسد عدو شعبه وليس عدو فرنسا.

ولعمري إن هذا الرأي الذي تفوّه به ماكرون هو رأي عالمي لكل الدول الأوروبية التي هي على شاكلة فرنسا، ولأمريكا وروسيا. والدول المسيطرة على قرارات مجلس الأمن. وإلا كيف نفسر هذا الصمت أمام البربارية والتوحش اللذينِ أتيت على ذكرهما؟.

ليس هناك من حركة خلاص إلا من داخل عالمنا العربي. ويجب أن نوطن النفس على صراع طويل جداً، لأن التوحش حالة عنفية فاقدة للضمير الأخلاقي والحس الإنساني، ومغتربة اغتراباً كلياً عن روح العالم.

صراع الجثث

يجمع أغلب فلاسفة التاريخ على أطروحة مفادها أن التاريخ سيرورة إلى الأمام، ويضيف بعضهم أنه سيرورة تقدم، دون أن ينفوا أن هناك مراحل تراجع تاريخي، لأسباب كثيرة، ومصادفات متنوعة، فالغزو المغولي-التتري أدى إلى تراجع تاريخي، والحالة الأسدية حالة كارثية في التراجع التاريخي لسوريا وهكذا. لن ندخل في نقاش حول مفهوم التقدم الذي تنفيه المدرسة البنيوية وتؤكده المدرسة التاريخانية، ولا في عمر الدولة الخلدوني من حيث البداية والذروة والانتحار، ولكن الثابت أن التاريخ يشهد تحولات وتغيرات عاصفة مهما مر بحالات تراجع ونكوص. بل إن العواصف التاريخية الداخلية أهم علامات التغير التاريخي.

إن حدوث التغيرات العاصفة في الوعي على مستوى الكوكب، مع وجود تفاوت في درجة الوعي المطابق للثورات المعرفية بين هذه الأمة أو تلك، وانتشار المعرفة وجعلها في متناول اليد، بسبب عالم النت، قد غيّر في جوهر الوعي التاريخي الإنساني، ومعنى السيرورة التاريخية المتسارعة في العالم.

غير أن التاريخ يمر في بعض الأحايين فيما سميناه في بعض مقالاتنا بالركود التاريخي. والركود التاريخي نوع من الثبات المجتمعي بسبب غياب أو تغييب

قوى اجتماعية محرّكة للتاريخ، بحيث يسود نوع من الاستنقاع الذي يخلق مع الأيام ما أسميه جثثاً مجتمعية. والجثث هذه بفعل الركود التاريخ قوى عمياء مؤلفة من قوى كانت مسيطرة وقامعة للسيرورة التاريخية ومحتكرة للقوة المادية، وقوى نكوصية ليس لديها وعي بالتجاوز الأرقى، وسرعان ما تتحول هاتان القوتان في حال تفسخ التاريخ الراكد إلى جثتين متصارعتين متشابهتين غير متناقضتين.

يتميز صراع الجثث هذا بحالة عنفية مطلقة لا يؤدي ولن يؤدي إلا إلى عملية دفن الواحدة للأخرى، وإذا ما طال أمد عملية الدفن المتبادل، دون بروز قوة حية جديدة بفعل فكرة الخلاص الإنساني، تطرح البديل الأرقى وتعمل على تحقيقه فإن الدمار الشامل سيعم البلاد والعباد. صحيح أن التاريخ الراكد يعقد من عملية ظهور الوليد على نحو كامل غير أن المجتمع ورغبة البشر في التحرر من الجثث التي تحول بين حريته وكرامته وسعادته سرعان ما يخلق البديل الخلاصي الواعد.

لكن البديل الأرقى، إن ظهر، وهو يظهر في الغالب كقوة خلاصية، قد يجد نفسه أمام مشكلة صعبة ألا وهي أنه على الرغم من الصراع الدامي بين الجثث فإن الجثث بدورها تقوم في مواجهة البديل الحي والمولود التاريخي الجديد، لأنه يشكل النقيض الحقيقي للتاريخ الجثة، بل تكون الجثث هذه أكثر حقداً ودموية ضد البديل من حقدها ودمويتها على بعضها.

وهكذا نكون أمام نوعين من الصراع: صراع الجثث غير المثمر، لأنه صراع المتشابهين، وصراع مثمر وهو الصراع بين الجثث من جهة وبين القوى الخلاصية الجديدة من جهة أخرى، وهو الصراع المثمر لأنه صراع بين المتناقضين.

تخلف الجثث المتصارعة وراءها بعد هزيمتها كارثة وجودية من دمار الحياة، قتل وتهديم وثارات وأحقاد، هيهات أن يتجاوزها الزمن أو يكون قادراً على محوها، بل إن عملية إعادة الحياة إلى التاريخ تتطلب جهداً هائلاً وطاقات تفوق قدرة البشر العاديين.

ومن هنا تبرز أهمية وعي الوليد المتجاوز لخطر الصراع بين الجثث، ولخطر القوة العمياء للجثة قبل دفنها. الجماعة المتخلفة الحاكمة في سوريا الآن وميليشياتها الطائفية جثث، والقوى المؤهلة للكفاح ضدها هي القوى الحية، الجسد الوليد، وليس الجثث التي هي على شاكلتها.

تعليق حول مقتل الحسين

كتب الصديق الدكتور محمد حبش عن مقتل الحسين بن علي، وحذف ما كتب لأن التعليقات جاءت، كما أشار، في صورة معركة بين المتخاصمين.

والذي كتبه محمد حبش ليس سوى دعوة للتحرر من العادات السيئة التي ارتبطت بمقتل الحسين بن علي.

سواء كان اللطم والتطبير والمطالبة بالثأر عند الشيعة، أو الشماتة بمقتله عند أهل الشام، حيث يسمّى يوم عاشوراء بيوم البحبوحة.

والحق أني للمرة الأولى أقرأ عن الشماتة بمقتل حسين عند أهل الشام، فكل ما أعرفه أن أهل الشام يقدرون من يطلق عليهم آل البيت.

وبوصفي شخصاً لا أنتمي إلى صرعات الماضي، بل عيني على الحاضر والمستقبل الحر والسعيد لبلادنا فإن تعليقي على هذه الواقعة ينطلق من هذا.

والحق أن استدعاء تاريخ الصراع على السلطة، وهو - أي الصراع - مسألة دنيوية صرفة، إذا كان خارج الكتابة التاريخية الموضوعية، المتحررة من الانحياز والحب والكره فإنها خالية من القيمة المعرفية، وليس لاستدعاء هذا التاريخ قيمة عملية. لا سيما إذا كان استدعاؤه تأجيجاً لصراعات طائفية مدمرة للحياة المعشرية

والهويات الوطنية. فالقتل بدافع الصراع على السلطة حالة دنيوية تاريخية قديمة وجديدة. والتاريخ الإسلامي مليء بوقائع القتل من أجل السلطة، من مقتل الخليفتين عمر وعثمان، إلى مقتل علي، ومقتل الأمويين على يد العباسيين، ومقتل أبي مسلم الخرساني وهكذا.

ولن تجد من بين جميع المسلمين السنّة من لا يحزن على مقتل الحسين، ولا من يمتدح قاتليه. فهذا ابن تيمية مكروه الطوائف التي يطلق عليها المؤرخون الطوائف الباطنية كتب يقول:

" وأما مقتل الحسين رضي الله عنه فلا ريب أنه قتل مظلوماً شهيداً كما قتل أشباهه من المظلومين الشهداء. وقتل الحسين معصية لله ورسوله ممن قتله أو أعان على قتله أو رضي بذلك، وهو مصيبة أصيب بها المسلمون من أهله وغير أهله وهو في حقه شهادة له ورفع حجة وعلو منزلة فإنه وأخاه سبقت لهما من الله السعادة التي لا تُنال إلا بنوع من البلاء. ولم يكن لهما من السوابق ما لأهل بيتهما، فإنهما تربّيا في حجر الإسلام في عز وأمان فمات هذا مسموماً وهذا مقتولاً لينالا بذلك منازل السعداء وعيش الشهداء".

لكن السؤال لماذا أثار مكتوب الدكتور حبش مثل هذه التعليقات السلبية؟ لأنه وببساطة، تحوّل الحسين إلى مرجع للسياسة الثأرية، ولم يبق ذَا امتياز عائلي.

باسم حسين ولبيك يا حسين تُرتكب أشنع الجرائم في سوريا والعراق. فلقد قُتل الحسين بن علي مرتين، مرة في الصراع على السلطة مع بني أمية، فحزن جميع المسلمون عليه.

وقُتل مرة ثانية الآن بيد من يعلنون الانتماء إليه ويقتلون باسمه. فكره السنة القتلة ويبدو أن هذا الكره اقتلع الحزن من قلوبهم على مقتله الأول.

الطائفية داء يفسد أصدق العواطف يا سادة، وأصدق العواطف عاطفة الحزن. فأهل الصراعات على السلطة في تاريخ الدول الإسلامية جميعهم الآن يقيمون في المقابر، فلا تجعلوا المقابر أساساً لصناعة الحاضر، إن الحاضر الذي تصنعه المقابر حاضر ماضٍ وميت، وأي جماعة أو حزب تسعى لتسيطر المقابر على الحاضر فإنها ترتكب من الكوارث كوارث أشد من تلك التي حدثت في الماضي.

إذا كان لا بد من استدعاء رموز من ماضينا فلتكن تلك الرموز التي أغنت التجربة المعرفية والثقافية بالعلم والفكر والأدب حباً بالمعرفة والنظر إلى المستقبل بعيون الحاضر بما يمتلكه من جديد وقطيعة مع الماضي.

فلا محبّو الحسين بقادرين على خلق عالم جديد فهو لن يمدهم بأي فكرة صالحة للحياة، ولا كارهوه يساعدهم كرههم على التحرر والحرية من هذا الواقع الزفتي.

موت حسن نصر الله

حين كان الجنوب اللبناني محتلاً من قبل إسرائيل وبمساعدة قوات أنطوان لحد، اكتسب حزب الله وحسن نصر الله سمعة معجونة بحب المقاومة التي قدمت تضحيات من خيرة شباب الجنوب. ومع انسحاب إسرائيل من الجنوب بفضل هذه المقاومة ازداد حضور حسن نصر الله وحزب الله في الوجدان العربي عموماً والوجدان الفلسطيني على وجه الخصوص.

كنا على دراية بأن حزب الله حزب طائفي، ولكن أن يكون الحزب طائفياً في لبنان الطائفي، فهذا كان أمراً طبيعياً وما زال. ولهذا لم تكن الحركات والأحزاب الطائفية تخلق الاستنكار حتى لدى الأحزاب اللبنانية غير الطائفية.

غير أن الصراع مع محتل يمثل لدى الشعوب عموماً ظاهرة تعمي العقل عن رؤية ما هو سلبي عندما كنا نطلق عليه المقاومة.

ولهذا كان مفهوم المقاومة يمنح المقاوم مكانة تحرره مما هو سلبي، تماماً كالسجين السياسي أيام الأسد الذي يحتل مكانة رفيعة في المجتمع بمعزل عن الجوانب الأخرى التي ينطوي عليها، والتي قد تكون غير مستحبّة.

بهذا المعنى كان الانتماء للمفهوم وليس للشخص آنذاك. ولما كان الشخص يعين المفهوم -المقاومة، فإن حسن نصر الله حاز على حبنا جميعاً نحن الفلسطينيين والسوريين. لم نربط حينها بينه وبين الجماعة الحاكمة التي نكره، إذ لم يكن الوعي الكاره لإسرائيل ليسمح لنا أن نكره المقاومة التي يمثلها حسن نصر الله بسبب علاقته بولي الفقيه و"الرئيس القائد".

مع قيام الثورة الشعبية السورية ودخول حزب الله طرفاً إلى جانب الجماعة الحاكمة ليمارس القتل شأنه شأن عسكر النظام، ومع احتلال القصير، مات حزب الله ومات حسن نصر الله، وتحول المقاوم في الوعي إلى مجرم، وصار مفهوم المقاومة مفهوماً يدعو للسخرية، وصار نصر الله قاتلاً أشِراً، وعدواً أشد خطورة من إسرائيل بالنسبة للأغلبية السورية.

ولد حسن نصر الله عام ١٩٩٢ ومات عام ٢٠١١. أي إنه عاش تسع عشرة سنة فقط. ولد حسن نصر الله في اليوم الذي عُيّن فيه أميناً عاماً لحزب الله المقاتل ضد إسرائيل، ومات حسن نصر الله في اليوم الذي صار فيه مقاتلاً ضد شعب سوريا. ولد حسن نصر الله وعاش في زمن كان يعلق فيه فتى دمشقي صورته على عنقه احتفالاً بالمقاومة، ومات حسن نصر الله حين أطلق رصاصه الطائفي على عنق الشاب نفسه.

عاش حسن نصر الله سنوات في وجدان فتاة سورية تؤجل موعدها فجأة مع حبيبها الذي ينتظرها أمام قاعة الرقص لأنها ستستمع إلى خطاب "سيد المقاومة"، ومات حسن نصر الله عندما أطلق عناصره الرصاص على جسد حبيبها.

عاش حسن نصر الله في الوجدان الوطني اللاطائفي وهو الطائفي حباً بالجنوب المقاوم، ومات حسن نصر الله حين أطلق لحقده الطائفي العنان قاتلاً في موته ذكرى الوجدان. ومات دون أي مأتم أو ترحّم من أحد من حملة الوجدان الوطني والإنساني عليه.

خاتمة: حول المصير السوري

تعيش سوريا اليوم أكثر حالات مسارات تاريخها تراجيدية، والقوى الفاعلة في مسارها داخلياً وإقليمياً وعالمياً بكل تناقضاتها واختلافاتها حول النهايات الممكنة جعلت من سيرورتها عملية أكثر تعقيداً بحيث صار لزاماً على النخبة السورية التفكر في معركة المصير السوري الدائرة الآن.

وإذ أخاطب النخبة السورية السياسية الموجودة أو الممكنة، فلأني أعتقد أن أي فعل سياسي تاريخي مستحيل أن يحقق أهدافه دون نخبة تقوده.

غير أن تفكير النخبة بالمصير السوري واندراجها في صناعته يجب أن يكون جزءاً من عملية نقدية عميقة تطال مسؤوليتها عن واقع الحال، بوصفها جزءاً من تلك القوى الفاعلة، وتطال نقد خطابها الذي ساهم في تشكيل وعي الفئات الاجتماعية والسياسية التي مارست الكفاح اليومي على الأرض.

إذ لا يمكن للنخبة السورية أن تكون جزءاً من إرادة التغيير والتحول إلا بوعي جديد يقيم القطيعة المعرفية والأيديولوجية مع التفكير الإرادوي، الذي حوّل التمنيات المستحيلة وغير الممكنة التحقق واقعياً إلى أهداف أثيرة لدى جمهور عاش مرحلة الغرق بسحر الآمال المستحيلة، والثقة بتحققها.

أجل، إن مفهوم المصير هو المفهوم الأكثر تطابقاً مع حركة التاريخ السوري الآن، فالثورة والثورة المضادة هما صورتا الصراع حول مصير سوريا. وجميع

القوى الفاعلة تخوض الصراع انطلاقاً من هذا المفهوم. ولكن السؤال كيف لنا أن نفكر بمصير واقعي ممكن؟

فالثورة الشعبية التي أخذت صورة الكفاح المدني الهادف الى تغيير النظام السياسي لتحقيق الحرية والديمقراطية على أنقاض الحكم التسلطي المستبد دون المساس بوحدة الأرض والشعب وجدت نفسها اليوم أمام ممكنات ربما لم تخطر على العقل مسبقاً، ممكنات ولدها المسار الذي عينته قوى الصراع.

فالتفكير بالمصير وبالممكنات التي ينطوي بعضها على شروط متساوية في القوة، وبعضها على شروط متساوية في الضعف أمر في غاية الأهمية، فالوعي بالواقع وممكناته، وبالإرادة وممكناتها شرط من أهم الشروط للاندراج في فاعلية مبدعة لتقرير مصير الوطن السوري.

وقد علمتنا التجربة التاريخية للأمم وللشعوب وللجماعات أن الممكن الأضعف قد ينتصر على الممكن الأقوى، بل وقد ينتصر ممكن لم يجرِ الكشف عنه ولم يكن في حسبان الوعي.

ودون أي إحساس بأية مسؤولية وطنية، ودون التفكير بحل سياسي متطابق مع المطالب الشعبية الذي كان ممكناً دون إراقة قطرة دم واحدة، حوّلت الجماعة الحاكمة سوريا من قضية سياسية داخلية مرتبطة بتغيير في بنية السلطة عبر وسائل سلمية، وعبر حرية الاختيار والديمقراطية إلى مسألة دولية عصية على الحل وكيف يكون حل المسألة إذا صارت إرادة السوريين عاجزة عن الفعل؟.

أجل هناك فرق بين سوريا الثورة- والتي يجب التمسك بمطالبها وهي الانتقال السياسي من حكم الجماعة المتأخرة تاريخاً ممارسة ووعياً ، إلى أرقى أشكال النظم

الديمقراطية المعبر عن تقدم الوعي الشعبي والنخبوي السوري من جهة، وسوريا المسألة التي أصبحت موضوعاً خاضعاً لمصالح واتفاقات دولية وبخاصة بين روسيا وأمريكا وإيران وتركيا، من جهة ثانية.

ولا شك بأن تحويل الثورة السورية بوصفها حدثاً داخلياً قابلاً للحل الداخلي عن طريق إرادة داخلية إلى مسألة دولية، قد عقد المصير السوري جداً، وهذ بدوره يفرض علينا نمطاً جديداً من التفكير. ودون أن ننطلق من الوقائع السورية الآن، لا يمكن أن نجيب عن سؤال سوريا المستقبل الممكن، سوريا المصير.

دعونا نحدد جملة الوقائع التي نشأت وتعيش الآن بوصفها محددة لما هو آت:

أولاً: الانهيار شبه التام لسلطة الدولة والدولة

يشكل انهيار بنية السلطة المركزية واقعة لم تخطر على بال السلطة ذاتها. وهذا يعني تحولات في النظام السياسي بما يتوافق مع فقدانه سلطته المركزية. هذه الواقعة وقد ترافقت مع ظهور سلطات هي الأخرى ليست بمركزية حصلنا على تعدد السلطات ذات السيادة المادية والروحية والأيديولوجية، وبالتالي حصلنا على تعدد في السيادة، وتعدد السيادة يعني انهيار مفهوم الدولة. وفي مساحة جغرافية وسكانية اسمها سورية لم يعد هناك سلطة تحتكر القوة، تحتكر القانون والتشريع، وتحتكر التمثيل وتحتكر الحق في اتخاذ القرار.

تولد هذه الواقعة مساراً جديداً للثورة ذَا تعقيد شديد: فإذا كانت الثورة في انطلاقتها قد طرحت تغيير النظام السياسي في سوريا كما هي آنذاك، فإن مهمة الثورة الآن، وقد زالت "سوريا آنذاك" إنتاج الدولة السورية في واقعة تعدد

السلطة والتفكير بمركزية ما، إذ لا وجود لدولة بلا مركزية ما، ولسنا نقصد بمركزية ما استعادة نمط المركزية الذي كان سائداً قبل الثورة. ولقد فعلت القوى الخارجية الفاعلة: تركيا وإيران وأمريكا وروسيا، وأوروبا على أقل، في تفكيك بنية الدولة السيادية في حدودها الدنيا. فالقرار الروسي والقرار الأمريكي والتركي والإيراني فيما يتعلق بالمسألة السورية هو الأكثر فاعلية الآن، في تحديد مصير سوريا في شروط انهيار البنية القديمة، مع بقاء بعض أشكال مؤسساتها القمعية.

ثانياً: انهيار وحدة السوق الاقتصادية

وهذه واقعة نتجت بالضرورة من تعدد السلطات في ظل الصراع المسلح الذي من شيمته بالأصل تقليص حجم السوق، تقليص حجم السوق في حالة تنوع السلطات ودرجة هيمنتها يطيح بالاقتصاد بوصفه عامل توحيد اجتماعي، ويحول الاقتصاد إلى عامل استقلال نسبي قد يتطور مع إطالة الحال إلى استقلال نسبي إلى حال استقلال تابع لاقتصاديات الدول المجاورة، ولا يحسبن أحدٌ أن تحطم وحدة السوق أقل خطورة من تحطم السلطة المركزية، لأن السوق يوحد المصالح وتلبية الحاجات، وفقدانه زمناً طويلاً يطيح بوحدة المصالح هذه.

لقد أدى تحطيم السوق والبنية التحتية للاقتصاد، زراعة صناعة حرفة، خدمات إلى انهيار العملة الوطنية، وإلى تحطيم التجارة الداخلية والخارجية، وتحويل أغلب فئات المجتمع إلى فئات فقيرة، وبروليتاريا رثّة. ما يعني أن شروط الحياة الضرورية باتت شبه معدومة. وحال كهذه الحال يقع ضرره على الجميع دون استثناء.

ثالثاً: الشروخ الاجتماعية

تبرز واقعة الشروخ الاجتماعية الآن بوصفها واحدة من الوقائع التي تحتاج إلى خيال مبدع أو قل واقعية عقلية مبدعة لإيجاد حل لها.

هناك الآن في سوريا شرخان أساسيان: **شرخ طائفي** نشأ في مرحلة ما قبل الثورة وظل مستتراً غير معبر عنه بفعل قوة السلطة القمعية، ثم كشفت عنه الثورة، فظهر الآن بصورته العملية والقولية أقصد الشرخ بين الأغلبية السنية والأقلية العلوية الحاكمة وحلفائها. إذ تطورت سيرورة الثورة وسيرورة مواجهتها إلى ظهور الصراع في صورة عصبيتين: عصبية النظام العلوية بالأساس، وعصبية الثورة السنية بالأساس.

ولقد تمت المواجهة المسلحة بين هاتين العصبيتين، بل إن انخراط شيعة حزب الله والعراق وإيران وأفغانستان وانخراط سنة من دول إسلامية في الصراع قد أكد هاتين العصبيتين كعصبيتين متناقضتين. ولقد أكد هذا الأمر الانشقاق الذي تم في الجيش السوري بسبب دخوله طرفاً في الصراع. فأغلبية المنشقين هم من الأكثرية السنية. إن البلاد اليوم في ورطة طائفية، وترك البلاد في ورطة طائفية مسلحة تطرح أمام العقل مسألة العلاقة المعشرية القادمة واجتراح حل تاريخي، فالبنية النفسية الثأرية وبخاصة في المجتمعات الفلاحية تضع فكرة العيش المشترك بين قوسين.

أما الشرخ الثاني فهو **الشرخ بين الكردي والعربي**. وهو شرخ ذو جذور في الوعي الكردي شمال شرق سورية. فالثورة ومواجهتها من قبل النظام وقد حطمتا السلطة المركزية واحتكار القوة كما أشرنا فإن هذا قد مهد السبيل أمام بروز

السلطة الكردية وصورة من صور سيادتها في الشمال الذي هو بالأساس وسط سكاني مختلط. وهو شرخ ازداد في الآونة الأخيرة بوجود جسم كردي سياسي- عسكري ذي علاقات مع قوى عالمية فاعلة في المسألة السورية باستقلال عن الجسد العربي السوري، معزز بوهم قومي كردي عند بعض نخبهم.

وهكذا فإن واقعة الشرخين الطائفي والقومي من الوقائع التي تطرح على النخبة السورية ذات الانتماء الوطني سؤال العلاقة بين الدولة والمجتمع مرة أخرى دون استحياء من الوقائع الموضوعية.

رابعاً: القوى الإسلامية

ينظر إلى واقعة القوى الإسلامية السياسية المقاتلة على اختلاف مشاربها اليوم من زاويتين: أولاً من زاوية السؤال حول مستقبل سوريا السياسي والاجتماعي والروحي، وثانياً من زاوية الدور الذي تقوم به في مواجهة بقايا السلطة المركزية وميليشياتها من جهة، وضد المستقبل الديمقراطي العلماني السوري من جهة أخرى.

أما من الزاوية الأولى، فإن أغلبية سنية مدينية شكلت، تاريخياً العمود الفقري للاقتصاد السوري الحديث والتنوير الفكري والسياسي وجميع عرب سوريا من مسيحيين وعلويين وإسماعيليين ودروز لا يتخيلون حكماً سياسياً دينياً إسلامياً على أنقاض بنية السلطة السابقة. وتجربة سلطة القوى الدينية في مناطق نفوذها تجربة تؤكد استحالة تحول هذه التجربة واقعياً إلى تجربة كلية. لكن الأيديولوجيا التي تقف وراء القوى الإسلامية والصراع الذي تخوضه الآن لا يمكن أن ينفصل عن فكرة الحكم، وهنا تظهر المعضلة. فكل حركة سياسية كما يقال، إنما تطمح

للحكم. وبالتالي فإن واقعة وجود الحركات الإسلامية كجزء من قوى الصراع شيء ومستقبل الحكم في سوريا شيء آخر. ولهذا فالسؤال الذي يجب أن يخضع لحوار ونقاش جديين ليس هو هل سيحكم الإسلاميون أو لا يحكمون، لأنهم لا يتوافرون بالأصل على قوة وتفكير واقعي يسمح لهم بالحكم، فضلاً عن أن الفاعلين الأساسيين في المسألة السورية على النقيض من هذه القوى، وإن استخدموها لأغراضهم الخاصة. بل السؤال كيف يتحول الإسلاميون غير العنفيين إلى قوة سياسية في دولة ليست دينية، بل ديمقراطية دستورية علمانية؟ ولا شك أنني لا أتحدث هنا عن قوى إسلامية راديكالية جداً تطمح لإعادة الماضي كما هو الأمر مع داعش والقاعدة والنصرة وما شابه ذلك.

خامساً: فقدان الأمان الفردي والجماعي

لقد حطمت الجماعة الحاكمة في سوريا العلاقات المعشرية التي تتسم بالولاء والانتماء والذكاء العاطفي. إنها لمن الظواهر النادرة في التاريخ الراهن أن يتكون وعي عدائي شعبي أكثري ضد سلطة الدولة وضد كل ما له علاقة بها، ناظراً إلى الدولة و السلطة على أنهما شيء واحد، وفي مجتمع لا يستطيع أن يعبر عن عدائه للدولة-السلطة، وشعوره بالخوف الذي نشأ من تجربة القمع والعنف البربري للسلطة، وفقدان الأمان الفردي والجماعي، ومع تعميم أخلاق الجماعة البربرية الحاكمة فقد السوري شيئاً فشيئاً خصلة الذكاء العاطفي الضروري للحياة المعشرية الطبيعية القائمة على حضور قيمة الآخر وما يترتب عليها من أخلاق التعاون والروابط المشتركة ذات الطابع الإنساني.

إذ يجب الاعتراف أنه في هذه المرحلة من تاريخ الصراع في سوريا ليس هناك قرار وطني سوري مستقل، بل وليس لدى سلطة دمشق قرار سلطوي مستقل. لكن هناك فرق بين قوى تسعى لأن تحوز على استقلال قرارها بسبب سلب هذا القرار من قوى عربية وعالمية داعمة لها، ونظام لا يجد ذاته إلا بفقدان قراره المستقل من إيران و روسيا وتطابقه معهما.

ليس هناك خطر على سوريا الآن يفوق خطر غياب القرار السوري المستقل، وآية ذلك أن سورية بالأساس تخوض معركة مصير، فأنّى لمعركة مصير أن تحقق أهدافها دون الحق في تقرير المصير، وفكرة الحق في تقرير المصير تتطلب قراراً وطنياً مستقلاً يحقق الترابط بين الوطني والدعم الخارجي الذي يخدم فكرة تقرير المصير. والتفكير سورياً بالمصير دون وعي هذه الوقائع وما وراء هذه الوقائع أمر سيولد حتماً أخطاء في الممارسة العملية يزيد من الزمن الضروري في إنتاج الدولة السورية المنشودة ويعقد من مسارها، ويلقي أعباء ثقيلة على الإرادة.

إن التفكير بمستقبل سورية دون الانطلاق من هذه النظرة الكلية تفكير لا ينجب وعياً مستقلاً مطابقاً، بل وفي ضوء ما سبق يجب أن تُطرح الأهداف الواقعية، التي يُسعى إليها، وتحديد الأدوات والوسائل الجديرة بتحقيقها. ومعرفة الإمكانيات الحقيقية للفعل، بعيداً عن الخطاب المنطلق من الانفعال الغاضب، والهوى والنزعة، هي تحدّد الممكن السوري.

إذاً المستقبل السوري هو ذاته الممكن السوري وليس هو ما يجب أن يكون كفكرة عاطفية في الذهن، ولهذا دعونا نحدد الممكن تحديداً سلبياً، أي باللا ممكن بناء على ما سبق من أطاريح.

هناك ثلاثة لا ممكنات سورية:

١- استحالة عودة سوريا إلى ما قبل الثورة بوصفها دولة سلطة، وبالتالي عودة الجماعة الحاكمة إلى سابق عهدها في حكم سوريا

٢- استحالة الحكم الإسلامي العنفي أو السلمي للدولة السورية الجديدة.

٣- استحالة استمرار الحرب الآن التي صارت تتصف بأنها حرب أهلية أو شبه أهلية مدعومة أطرافها من تلك القوى الأربعة الأساسية التي أشرت إليها: روسيا، أمريكا، إيران، تركيا.

وعندي بأن هناك ممكنين سوريين على الأقل في حدود العقل الواقعي، ممكن مرفوض، وممكن مقبول.

أما **الممكن المرفوض** فهو التقسيم، الذي قد تلجأ إليه قوى خارجية بموافقة قوى داخلية ،تقسيم وفق الوقائع الراهنة والمحمية من الدول الفاعلة الداخلة في تحديد مصير المسألة السورية.

والممكن المقبول واقعياً قيام الدولة الوطنية الفدرالية السورية، دولة تتأسس على عقد وطني جديد يفضي إلى عقد اجتماعي.

من الطبيعي أن تكون الإمكانية الثانية هي خيار التيار الوطني الديمقراطي السوري، مع أنها الخيار الأصعب، ولكنه الخيار الذي يعيد إنتاج الدولة السورية بعد حرب طويلة.

وإذا كان العقد الوطني لا يقوم إلا باتفاق ممثلي القوى الفاعلة طبقياً واجتماعياً وثقافياً وقتالياً فإن اختيار الطريق العملي للوصول إلى هذا العقد في ظل الوقائع

السورية السابقة التي نشأت بفعل سيرورة الصراع التي ذُكرت سابقاً، يحتاج إلى توافق داخلي ودولي وعقل مبدع ويقوم على مبدأ الاعتراف.

هل يمكن لهذه "الإمكانية" أن تكون الهدف الأساسي الذي تتوحد حوله قوى المجتمع السوري المتنوعة طبقياً وطائفياً وإثنياً وما هي الشروط التي يجب أن تتوافر لتحققه؟

إن قيام كتلة تاريخية سياسية سورية جديدة، تضم الاختلاف والتنوع، وتتحد على الممكن الواقعي هو الشرط الضروري لتحقيق المصير.

هذه الكتلة لا يمكنها أن تكون فاعلة فاعلية واقعية على الأرض إلا بتوافر نخبة وطنية ليست طرفاً في الصراعات الدولية حول مستقبل سوريا. إن فكرة القرار السوري الوطني المستقل تتطلب كفاحاً على الأرض وفي مواجهة قوى السلب له. فالإرادة الروسية الإيرانية في سوريا أفعل بكثير من إرادة الجماعة الحاكمة، والإرادة التركية الأمريكية أفعل من القوى السورية التي تمشي وراءها.

إن نخبة سورية تقود كتلة تاريخية تعيد سوريا إلى قضية وطن وشعب، وتتجاوز حال المسألة السورية بوصفها لعبة دول هي الشرط الضروري للعمل على مستقبل سوريا الوطني. وعندي بأن الوضع السوري الداخلي اليوم، بما يعانيه من فقدان أبسط شروط الحياة الكريمة، واستفاقته على حجم الدمار الذي حصل، والمُهجّرين السوريين في لبنان والأردن وتركيا يدركون بأن الحياة الكريمة مستحيلة خارج وطنهم واقعتان تسهلان عملية خلق الكتلة التاريخية ونخبها.

هذه الرؤية الشخصية، بكل ما قد يعتورها من هنات، ليست سوى صرخة الحقيقة لإيقاظ النائمين على أسرّة أوهامهم ومصالحهم وخيبة أملهم وتشاؤمهم.

المؤلف في سطور

أحمد نسيم برقاوي

فيلسوف ومفكر وأستاذ جامعي وشاعر فلسطيني سوري.

ولد في بلدة الهامة بريف دمشق (٢٩ أبريل ١٩٥٠) لأسرة فلسطينية من مدينة طولكرم. أبوه كان مدرسا للتربية الدينية، وأمه كانت مدرسة لغة عربية (خريجة دار المعلمات في القدس) ثم مديرة مدرسة في حوران، جنوب سوريا.

حياته العلمية

درس المرحلة الابتدائية والإعدادية في منطقة حوران، والثانوية في مدرسة (الأندلس) الخاصة بمنطقة الحلبوني بدمشق. ثم انتسب إلى قسم الفلسفة في كلية الآداب بجامعة دمشق. وفي عام ١٩٧٧ حصل على درجة الماجستير، ثم على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة سانت بطرسبورغ الروسية عام ١٩٨١.

عمل محاضرًا في جامعة دمشق قبل تعينه لمدة عامين ونصف ثم أصبح عضوًا في الهيئة التدريسية منذ عام ١٩٨٣. وهو حاصل على درجة بروفيسور.

ترأس قسم الفلسفة بجامعة دمشق بين عامي ١٩٩٥ - ١٩٩٩، عمل مدرساً ومحاضراً في عدة جامعات سورية وعربية، وشارك بعشرات المؤتمرات والندوات الفلسفية، وله مقالات ودراسات في عدة صحف ومجلات عربية.

أيد الثورة السورية منذ انطلاقتها عام ٢٠١١ وصدر قرار فصله من الجامعة بتاريخ ٩ أبريل ٢٠١٤ وحرمانه من حقوقه التقاعدية. يقيم الآن في دبي.

مؤلفاته

"محاولة في قراءة عصر النهضة"، عام ١٩٨٦.

"العرب بين الأيديولوجية والتاريخ"، دمشق، دار الأهالي، عام ١٩٩٥.
"مقدمة في التنوير (العلمانية - الدولة - الحرية)" دار معد للنشر، دمشق: ١٩٩٦
"أسرى الوهم"، دمشق- دار الأهالي: ١٩٩٦.
"دفاعًا عن الأمة والمستقبل"، دمشق- دار الأهالي: ١٩٩٧.
"ابن رشد معاصرًا"، دمشق- دار الأهالي: ١٩٩٩.
"العرب وعودة الفلسفة"، دمشق- دار طلاس: ٢٠٠٠.
"طلاسم أبو ماضي"، بيروت- دار الذاكرة: ٢٠٠٤.
"فلسفة الأنا"، دمشق- دار التكوين: ٢٠٠٥.
"العرب والعلمانية - رام الله: ٢٠٠٥.
"المسألة الثقافية في الوطن العربي والعالم الإسلامي"، بالمشاركة مع رضوان السيد - دار المعرفة: ٢٠٠٦.
"كوميديا الوجود الإنساني"، دمشق - دار التكوين: ٢٠٠٩.
"الفكر العربي الحديث والمعاصر"، الدار البيضاء: ٢٠١٥.
"أنطولوجيا الذات"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت: ٢٠١٥.
"الدرس السقراطي" من جزئين، دار كتّاب دبي: ٢٠١٨.
"أطياف فلسفية" مؤمنون بلا حدود للدراسات والنشر- الدار البيضاء: ٢٠٢٠.

دواوينه الشعرية

"لعبة الحياة" ٢٠١٠ "الأنا" ٢٠١٨ "شذرات اللقيط" ٢٠١٨.